سلسلة روايات الجيب
الدوق الجريء
A-109
١٠٩ - ١
بلا عنوان
www.liilas.com
باربرا كارتلاند
BARBARA CARTLAND

العنوان الأصلي لهذه الرواية بالانكليزية:

THE DARE-DEVIL DUKE

Copyright © Cartland Promotions 1996

ISBN 0-7493-1272-6

الفصل الأول

قال الدوق بحدة: «يجب أن أذهب.»

فهتف الصوت الرقيق: «آه، كلا. فقد وصلت لتوّك ولا يمكنك أن تتركني. لا أستطيع أن أسمح لك بذلك.»

لم يكن في صوتها شيء غير عادي.

ومع هذا، فقد تنبه الدوق إلى الخطر.

ذلك أن اعتماده على حاسة الحدس غير العادية التي لديه، هو ما جعله ينجو من أخطر المآزق، ما جعله يستحق عن جداره لقب الدوق الجريء الذي التصق باسمه.

فقد كان يتكفل، أثناء وجوده في الجيش، بما كان يبدو واجبات صعبة لم يكن ضابط آخر ليجرؤ على القيام بها.

وعندما تسلم دارسي هورن اللقب بشكل غير متوقع وجب عليه، عند ذاك، الاستقالة من فرقته.

وهكذا ترك الجيش بعد أن حصل على العديد من الميداليات وأوسمة الشرف والتي كانت أقوى دليل على استحقاقه لسمعته تلك.

كان حدسه هذا، والذي كان يدعوه أحياناً بـ الصوت المحذر هو الذي أبقاه بصحة جيدة. لقد صانه لكي يرث الدوقية، وذلك عقب وفاة ابني عمه الاثنين.

والآن، ودون سبب واضح، أدرك أن عليه أن يغادر هذا المنزل.

عادت اللايدي جولي تقول: «لا تذهب، أرجوك يا عزيزي.»

فأجابها: «بل يجب أن أذهب، يا جولي. ما كان لي

أن أحضر ولديّ عمل كثير غداً يستلزم نومي مبكراً.»

كان يتكلم وظهره إليها، ومع ذلك فقد شعر بها تنظر إلى ساعة الحائط.

فعادت تقول: «ولكن الوقت مبكر للنوم.»

ودون أن تلحظ هي، أدار المفتاح في قفل الباب، ثم وضعه في جيبه.

كانت تلك حركة سريعة منه قام بها بخفة نادرة لم تشعر بها اللايدي جولي مطلقاً.

قال لها: «آسف يا جولي، عليّ أن أذهب.»

وسار نحو ستارة تخفي وراءها حوضاً لغسل اليدين وكذلك فراشي جولي وقواريرها العديدة.

وعندما أزاح الدوق الستارة، صاحت به: «ما الذي تفعله؟»

كان لتلك الغرفة في ذلك المنزل الواقع في الزاوية من شارع تشارلس ستريت حيث مجموعة اصطبلات خلف البيوت في تلك الناحية من ساحة باركلي، كان لها نافذتان تطل واحدة منهما على شارع تشارلس ستريت والأخرى، والتي كانت مخفية خلف الستار، تطل على الاصطبلات تلك.

كان الدوق يعرف كل هذا، فلم يجب على سؤالها. ذلك أنه كان قد سمع أثناء إزاحته للستار، صوت عجلات عربة تقف أمام المنزل.

وعندما فتح النافذة المطلة على الاصطبلات، عادت تسأله مكتئبة: «ما الذي تفعله؟»

ومرة أخرى، لم يجبها بشيء.

وبخفة البهلوان، قفز متأرجحاً من عتبة النافذة ليستقر على سطح الاصطبل الذي تحته.

ومن ثم سهل عليه النزول إلى الفناء المبلّط.

وأثناء قيامه بذلك العمل، كان يسمع ضرباً عنيفاً على ذلك الباب الذي سبق وأقفله واضعاً المفتاح في جيبه.

اجتاز الاصطبلات بسرعة. وعندما وصل إلى نهايتها، ألقى بذلك المفتاح في مجموعة من النباتات هناك.

وبعد ذلك بأمتار معدودات، كان قد وصل إلى منزله في ساحة باركلي.

عند ذلك أدرك كم كان محظوظاً في نجاته تلك. لقد كان يعلم أن زوج اللايدي جولي يعاني من ضائقة مالية. ولكنه لم يخطر بباله أنه سينحدر إلى مستوى دنيء كي يوقع به ويرغمه على عمل لا يريده.

وسيكون أمام الضحية، حينذاك خياران لا ثالث لهما.

فإما المبارزة التي قد تنتهي بوجوب رحيله إلى الخارج لكي يمضي عدة سنوات من عمره، وإما أن يدفع.

وكان الدوق واثقاً مما سيطلبه الزوج تيموتي بارلو.

لقد كان عليه أن يدفع بدلاً من توريط سمعته بهذه الفضيحة التي يجب أن لا تحدث بهذه السرعة بعد أن استلم لقبه والأملاك الواسعة التي بقيت متوارثة بين رجال دريغورن قروناً عديدة.

وعاد يحدث نفسه مرة أخرى، لقد كنت محظوظاً حقاً إذ نجوت من كل هذا.

وكان يعلم أنه مدين لذلك الحدس الذي يتميز به والذي سبق وأنقذه عشرات المرت من قبل.

وقفز الخادم الليلي واقفاً عندما سمع نقراً على الباب.

وعندما دخل سيده، عاد هو يغلق الباب بالمزلاج، بينما كان سيده يقول له: «أخبر جنكنز في الصباح

أنني سأغادر إلى الريف مباشرة بعد الافطار.»

فتمتم الخادم الليلي: «حسناً جداً، يا سيادة الدوق.»

صعد الدوق السلم ببطء. وعندما وصل إلى غرفته، أخذ يتساءل عن السبب في أن ما حدث اليوم له، يحدث على الدوام؟

وعلى كل حال، كما حدث نفسه، فقد علمه هذا درساً بأن لا يعرض نفسه للخديعة مرة أخرى. وكذلك أن لا يضيع حالياً، المزيد من وقته الثمين في لندن.

فهو يعلم أن لديه الكثير من العمل في الريف.

فقد كان الدوق الراحل رجلاً كبير السن عندما توفي وكان قد أهمل الأملاك بعدم إصلاحها من أية ناحية كانت.

ولم يكن ذلك فقط بالنسبة إلى معدات المزرعة التي أصبحت قديمة الطراز. وإنما أكثر الجياد في الاصطبلات كانت كبيرة في السن. وكذلك عدد كبير من الخدم كان ينبغي احالتهم على التقاعد منذ سنوات.

وكان الدوق يعلم أن عليه أن يجعل أملاك أسرة دريغورن على أحدث طراز. وعليه كذلك أن يرمم ويصون كنوز القصر التي كانوا يتوارثونها جيلاً بعد جيل.

وحدث نفسه وهو يأوي إلى فراشه، بأنه كلما أسرع بالعمل، كان ذلك أفضل.

* * *

وفي الصباح، قرع الدوق الجرس يستدعي خادمه الخاص قبل أن يأتي هذا لايقاظه.

وقال بيتس عندما أجاب الجرس: «سمعت بأننا ذاهبان إلى الريف، يا سيادة الدوق.»

فأجاب الدوق: «أريد الرحيل قبل الساعة التاسعة.»

فقال الخادم: «هذا ما ظننته، يا سيدي. وقد أرسل السيد أشتون رجلاً منذ ساعة ليخبرهم بقدومكم.»

ولم يجب الدوق. فقد اعتاد هذه الطريقة الممتازة التي اعتادها سكرتيره في إدارة المنزل.

وكان يعلم أيضاً أن نظيره في القصر الريفي، السيد بينيت، سيهيء كل شيء لحضوره.

وارتدى ثيابه بسرعة. ثم نزل ليتناول إفطاره في غرفة الطعام التي تطلّ على حديقة ساحة باركلي.

وكان بجانب سريره عدد من الرسائل كان سكرتيره تركها غير مفتوحة.

ولدى إلقائه نظرة عليها، علم بأنها رسائل من معجبات.

وألقى بها جانباً وهو يفكر ساخراً بأن الليلة الماضية قد لقنته درساً لن ينساه بهذه السرعة.

لقد شكر حظه مليون مرة للوضع المذهل الذي يشغله حالياً.

فقد كان يتوقع أن يتقدم في السن ويكون ضابطاً في الجيش فكان أن وصل إلى رتبة ميجور في الوقت الذي ترك في الجيش.

ولكنه ما كان ليصل إلى رتبة أعلى دون وقوع حرب جديدة.

لقد أذاقته الحرب طعم الضيق والمخاوف والأخطار.

ولكنها كانت تمثل له تحدياً في نفس الوقت.

فكان يشعر بمتعة بالمغامرة، لا لشيء إلا لأنه يفوز على الدوام.

كان يعلم أن قواده، حتى أثناء اطرائهم له، كانوا يعتبرونه الرجل الجريء الذي سينتهي دون شك، عاجلاً أم آجلاً، في غير أوانه.

وكان يضحك حين يرى الذهول على وجوههم وهم يرونه يعود مع رجاله أحياء سالمين من كل أذى رغم مغامراتهم غير العادية ضد العدو.

والآن، ساد السلام، وانهزم العدو الذي كان يواجهه.

وأنهى الدوق إفطاره قبل أن يمس الرسائل التي أمامه.

وما لبث أن قرأ ثلاثاً منها، ثم مزقها.

أما الرسائل الباقية فقد كانت دعوات اجتماعية، وتحتاج إلى أجوبة مناسبة، وهذه يمكن أن يقوم بها سكرتيره.

ثم قرع الجرس الفضي الذي أمامه.

وسرعان ما لبى رئيس الخدم النداء. فقال له الدوق: «أطلب من السيد أشتون أن يقابلني في المكتب.»

فأجاب رئيس الخدم: «حسناً يا سيدي. ومتى ستعود من الريف؟»

«ليس لدي فكرة. ولكن ربما أقرب مما تظن.»

فقال رئيس الخدم: «في أي وقت تعود فيه، يا سيدي الدوق، فنحن على استعداد لاستقبالك.»

فأطلق الدوق ضحكة قصيرة: «سأصدق ذلك حين أراه.»

والتقط الرسائل التي كان وضعها جانباً، ثم غادر الغرفة.

وأثناء ذلك، كان يرى جنكنز ينظر إليه باعجاب.

وكان يعلم أن خدمه جميعاً معجبون به.

ذلك أن خادمه الخاص بيتس كان يحدثهم دوماً عن مغامراته أثناء الحرب.

وحيث أن بيتس قد شاركه في الكثير منها، فقد كان الدوق واثقاً من أنه بالغ في رواية الكثير من الأحداث.

وبينما كان يعطي إرشادته للسيد أشتون ليلغي ارتباطاته بالنسبة للأيام القليلة المقبلة، أخذ يضع توقيعه على عدد كبير من الشيكات.

وسأله السيد أشتون: «هل ستدعو سيادتك ضيوفاً إلى الريف؟»

فهز الدوق رأسه: «ليس حالياً، ولكنني إذا أردت حضور أياً من أصدقائي إلي، فسأرسل إليك خادماً بأسمائهم.»

فقال السيد أشتون: «إنني واثق من أنه سيسرهم تلقي أية دعوة من سيادتك.»

فقال الدوق: «قد يكون هذا ممكناً، وعلى كل حال فإن لدي عملاً كثيراً كما تعلم جيداً يا أشتون، ليس في القصر فقط، ولكن في بقية الأملاك أيضاً والتي هي مهملة بشكل سيء.»

فقال السيد أشتون بلهجة اعتذار: «أخشى أن هذا ما ستراه سيادتك. ولكنني أعلم أن المستخدمين يفعلون غاية جهدهم.»

فأومأ الدوق برأسه، فقد كان يعلم هذا أيضاً.

وترك المكتب خارجاً إلى الردهة حيث تناول من أحد الخدم قبعته العالية، ومن خادم آخر قفازيه، وفي الخارج، كانت عربته المشكوفة التي تجرها أربعة جياد، في انتظاره.

وكان قد ابتاع هذه الجياد بعد وصوله لتلقي اللقب بيوم واحد. ذلك أنه كان يعلم أنه إذا أراد أن يسافر بين قصره

في الريف وبيته في ساحة باركلي، بانتظام، فهو لا يريد أن يمضي في الطريق وقتاً طويلاً.

وصعد إلى مقعد القيادة.

وقفز السائس الذي يرافقه عادة إلى مقعده في الخلف.

ورفع الدوق سوطه، ومن ثم انطلق بالعربة.

عندئذ تملكه السرور، لأنه كان اشترى مجموعة جياده هذه من مزاد توترسال وكانت رائعة.

وكان علم أنها معروضة للبيع فقط لوفاة صاحبها. وكان الأوصياء على الأملاك يعملون بالنيابة عن صبي في الثانية عشرة، ولم يجدوا فائدة في الاحتفاظ بها.

وكان الدوق قد دفع في الواقع، مبلغاً جيداً إذ أنه لم يكن وحده في غرفة المزايدة.

وهو الآن يرى أنها تستحق الثمن الذي دفعه فيها.

وسرعان ما أخرج عربته من زحام السير، متجهاً بها نحو النهر ومن ثم إلى الجنوب.

وعندما أصبح في المنطقة الريفية، أطلق لجياده العنان.

وبينما كانت الجياد تركض بسرعة ملحوظة، شعر بأن قيادته لها هي أكثر متعة من أي شيء آخر قام به منذ مدة طويلة.

* * *

عندما غادر الدوق منزله في ساحة باركلي، كان في الناحية الأخرى من الساحة السيد رولاند روس يقف عند نافذته ينظر إلى الخارج.

وكان منزله يقع في زاوية شارع بروتن.

كان يضايقه أن جياد عربة الدوق كانت أروع تأثيراً في النفس من جياده هو، رغم أنه دفع فيها مبلغاً كبيراً من المال.

وإذا كان هناك شيء يكرهه السيد رولاند، فهو أن يتفوق عليه شاب صغير في العمل أو الرياضة أو المقتنيات.

كان بالغ الثراء، وقد صنع ملايينه بنفسه.

وكان لهذا يشعر بالازدراء نحو أولئك الذين ورثوا ثرواتهم وألقابهم دون مشقة، وذلك بصرف النظر عن استحقاقهم لها.

وكان قد منح لقب سير برتبة فارس منذ ثلاث سنوات وذلك بعد تبرعه بمبلغ ضخم للحزب الحاكم. وفي الواقع، كان ذلك المبلغ من الضخامة، بحيث كان غالباً ما يفكر بأن لقبه هذا كلفه الكثير.

وبينما كان يراقب الدوق وهو يغادر الساحة، كان يتساءل عما عسى أن يفعل بالنسبة لابنته كاسيا.

ذلك أنها أبدت له أمس، وفي نفس هذه الغرفة التي كان يقف فيها، أبدت له التمرد.

وكان قد أرسل يطلبها، فجاءت إليه مطيعة.

وعندما دخلت، نظر إليها مفكراً في مبلغ ما هي عليه من جمال. كانت في الواقع، تشبه أمها التي كان السيد رونالد يفتقدها في كل لحظة من النهار.

لقد كانت أمها، مارغريت، أصغر من ابنته الآن بشهر أو حوالي ذلك، عندما رأت رولاند روس لأول مرة.

وكان هو شاباً في منتهى الوسامة. ولكن دون مركز اجتماعي.

كان والده موظفاً في أملاك الإيرل مالفورد.

وتعرف رولا ند إلى اللايدي مارغريت في سوق خيري كان أقامه والده. ولم يمض على تعارفهما سوى عدة ساعات، حتى كانا قد وقعا في الغرام.

وعندما علم الإيرل أوف مالفورد بذلك، استشاط غضباً.

ومنع ابنته من العودة إلى رؤية رولاند روس وهدد بإلقاء والده في الشارع.

لكنهما لم يهتما بذلك. وهربا معاً مما زاد في غضب الإيرل. وعندما اعترف والد رولاند بأنه لم يستطع السيطرة على ابنه، كاد يضربه.

وانتظر أن يجوعا، وعندما يصبحان مهلهلي الثياب، ويتوسلان إليه بأن يصفح عنهما، عند ذلك فقط سيستعيد ابنته.

ولكن لا شيء من هذا حدث.

فقد رحل رولاند وعروسه الصغيرة إلى ليفربول حيث أخذ يعمل في مجال صناعة السفن.

وبعد سلسلة من الظروف غير العادية، وكذلك لذكائه الوقاد، رعاه من هو أكثر أصحاب السفن نجاحاً.

وحيث أنه لم يكن لديه ابن، ترك لرولاند سفنه وأعماله.

ومنذ تلك اللحظة، أو في الحقيقة منذ اللحظة التي تزوج فيها مارغريت، أخذ رولاند يصعد إلى القمة.

وفي الوقت الذي توفيت فيه زوجته، كان هو قد أصبح صاحب ثروة طائلة.

لقد عمل جاهداً لكي يصل إلى ما وصل إليه، فقط لكي يلقي بثروته عند قدميها، مبرهناً لها أنه يستحقها.

والآن، لم يعد له حاجة في تكريس المزيد من المال ذلك

لأن اللايدي مارغريت، والتي لم تكن قط قوية الجسم، كانت قد أنجبت ابنة واحدة سمياها كاسيا.

وكان هذا اسماً غير عادي، وهو يعني في اللغة البولونية (الصفاء).

فقد استحسنا ذلك لأن رولاند كان، عند ولادتها، متولياً بعض المشاريع لتلك البلاد.

وجيء لكاسيا بأفضل ما يمكن الحصول عليه من مربيات ومعلمات. وفي السنتين الأخيرتين كانت تتعلم في أهم المعاهد الخاصة للشابات في مدينة باث.

وكانت ستقام لها حفلة لتقديمها إلى المجتمع هذه السنة ما جعل السيد رولاند يخطط لإقامة حفلة بالغة الفخامة لها، وذلك في آخر أيار (مايو).

ولكن كان ينبغي تقديمها أولاً إلى الملكة وزوجها الأمير. وكان السيد رولاند أكثر اهتماماً بذلك منها هي.

وقال لها عشرات المرات: «سيكون لك أجمل وأغلى ثوب ارتدته فتاة.»

فكانت تجيبه قائلة: «لا أظن سيلحظني أحد، يا أبي، حيث سيكون هناك فتيات كثيرات في الحفلة، وسيكون هذا إسرافاً ولدي كل هذه الثياب التي لم أرتديها بعد.»

فكان السيد رولاند يصرخ قائلاً: «ستفعلين ما أقوله لك.»

وعندما جرى تقديمها إلى الملكة، تملكه الاستياء إذ رغم أن اسمها ظهر في باب (الاستقبالات الملكية) في الصحف، إلا أن كل ما ذكر عنها هو أنها ابنته.

وطبعاً، بالنسبة إلى بقية الفتيات المتقدمات، لأنهن كن بنات دوق وماركيز، فقد كتب عن كل منهن عدة سطور.

وفي بعض الحالات، كان هناك وصف دقيق لأثوابهن.

وأخذ السيد رولاند ينتقد تلك الصحف وتحيزها بمرارة لاذعة.

ولكن كاسيا، على كل حال، لم تزد على أن ضحكت وهي تقول: «عليك أن تحصل لنفسك على مرتبة الدوقية يا أبي.»

فتمتم رولاند يقول: «كان بإمكاني شراء الصحف، لهذا الغرض.»

وعادت كاسيا تضحك، ثم تقول: «كلا، كلا يا أبي فإنك تملك ما فيه الكفاية الآن، وأنت تعلم أن الطبيب نصحك بعدم اجهاد نفسك بالعمل كعادتك.»

فقال: «إذا كنت قلقة لأجلي، فأنا قادر تماماً على رعايتك. كما انني أعلم تماماً ما هو الصالح لك.»

كان ما يزال رجلاً في غاية الوسامة، ولكنها كانت تعلم أنه، حيث يتسلط عليه هاجس الشعور بأهميته، شديد العناد في اتباع رأيه.

وبعد اسبوع، وقع الانفجار.

كانت كاسيا قد ذهبت إلى حديقة باركلي للاجتماع بصديقة لها، حين أقبل الخادم مسرعاً ليخبرها بأن أباها يريدها.

فقالت: «سآتي حالاً.»

وقبلت صديقتها مودعة، وكانت هذه بصحبة مرافقة لها، أسرعت عائدة إلى بيتها.

كان السيد رولاند في مكتبه الذي كان من الطبيعي أن تزين جدرانه بعض صور السفن.

وقال لها عندما رآها تدخل المكتب: «آه، ها أنت ذي يا عزيزتي. لقد كنت أتساءل أين عسى أن تكوني.»

فأجابت: «كنت في الحديقة يا أبي، فليس لدينا أحد قادم إلى الغداء.»

فقال وقد بان عليه الرضا: «هذا حسن. حسن جداً.»

فسألته: «لماذا؟»

فأجاب بشيء من التردد: «أريد أن أخبرك، يا عزيزتي أني اخترت لك زوجاً.»

فهتفت: «اخترت لي زوجاً، ماذا تعني بذلك؟»

فأجاب: «أعني ما قلته. فقد كنت قلقاً، بل في غاية القلق من أن يتزوجك أحد لأجل ثروتك، يا عزيزتي. فأنت تعلمين أنك، حين أموت، ستكونين ثرية جداً.»

وسكت، ثم عاد يقول: «لا أستطيع احتمال التفكير في أنك ستتزوجين رجلاً قد يبدد كل ما تعبت في تجميعه.»

فحملقت فيه كاسيا، ثم قالت: «إنني... لا أفهم ما تقوله...»

أجاب: «ما أقوله هو ان اللورد ستيفيلتون، والذي أحمل له بالغ الاحترام، والذي يملك عقلاً ذكياً متزناً، يريد أن يتزوجك. وقد أعطيته كلمة القبول.»

فأخذت كاسيا تحدق في أبيها وكأنها لا تجد كلمات تقولها له. وأخيراً قالت: «كلا، يا أبي، إنني طبعاً لا أريد أن أتزوج... من شخص لا أحبه. إنني أعرف اللورد ستيفيلتون، ولكن لم يخطر ببالي لحظة واحدة أنك تريدني أن... أتزوج رجلاً أكبر مني بهذا المقدار... والذي لا أعرفه تماماً.»

فقال: «ولكنني أخبرتك بأنه يملك عقلاً ممتازاً. فهو سيدير ثروتك كما أريده أنا أن يفعل، وهو طبعاً لن يبددها كما يفعل أي فتى أحمق.»

فقالت بصوت هادىء: «إني آسفة، يا أبي، ولكن رغم حبي لك، فأنا لا أسمح لك... بأن تختار لي زوجي. إنني سأختار زوجاً أحبه... بنفسي، كما كانت أمي اختارتك أنت، بالرغم من إرادة أبيها. وهكذا، كما فعلت هي، سأختار أنا... الرجل الذي أحبه.»

فقال أبوها بحدة: «إنك لن تفعلي شيئاً من هذا النوع. فنحن، أنا وأمك، عندما هربنا معاً، قد حالفنا الحظ فنجحنا في زواجنا. ولكنني منذ ذلك الحين وأنا أفكر في مقدار الخطر الذي يصاحب أمراً كهذا، وأنني يجب ألا أسمح لابنتي بأن تفكر في مثل هذا الأمر.»

«إنك تقول يا أبي أنك لن تسمح لي بالزواج من شخص أحبه. وهذا يعني أن علي أن أهرب معه... كما كنتما فعلتما أنت وأمي.»

فكرر السيد رولاند كلامه غاضباً: «إنك لن تفعلي شيئاً من هذا النوع. فالأشياء بالنسبة إليك مختلفة جداً. فأنت وارثة غنية، ولا أعتقد بأن هناك رجلاً لا يجتذبه ذلك.»

فقالت: «إذن، علي أن أبقى دون زواج بطبيعة الحال.»

فقال بحدة: «لا تهددي بمثل هذا الكلام الفارغ. يجب أن تتزوجني بالطبع. ويجب أن يكون لك أولاد ليرثوا ثروتك، ولو أمكنني الأمر لأحببت أن يكون لي عشرة أبناء.»

فقالت: «أظنك طماع. فأنا لم أعرف زوجين أسعد مما كنتما أنت وأمي.»

فرقت نظرات السيد رولاند: «هذا صحيح، ولكن هذا يحدث مرة في المليون. وكما سبق وقلت، الأمور بالنسبة إليك مختلفة.»

فردت عليه بحدة: «إنني لا أرى أي اختلاف. وأقول لك بصراحة يا أبي انني لن أتزوج أي شخص دون حب، وإذا أنت رفضت أن تعطيني نقوداً، فسأحاول أن أشتغل لأعيل نفسي.»

فضحك أبوها ساخراً.

«أتظنين حقاً أن بإمكانك أن تعملي كما سبق وعملت أنا لكي أنقذ أمك من الموت جوعاً؟ يا طفلتي العزيزة، إنك عشت في أحضان الرفاهية طوال حياتك. فليس بإمكانك أن تكتسبي قرشاً واحداً ولو صعدت إلى القمر.»

قالت كاسيا: «سواء كان ذلك صحيحاً أم لا، فأنا أؤكد لك يا أبي بانني لن أتزوج اللورد ستيفيلتون.» ثم استدارت خارجة من غرفة المكتب.

وما ان أغلقت الباب خلفها بهدوء، حتى ضرب السيد رولاند المكتب بقبضته غاضباً.

ولهذا فهو خائف من ان تتبدد أو تتحطم بعد موته.

وأخذت كاسيا تروح وتجيء في الغرفة وقد تملكها القلق، شاعرة بأنها على وشك ان تفقد السيطرة على نفسها.

وابتدأت تفرك يديها بيأس كعادة الشرقيين، ولكنها ما لبثت أن حدثت نفسها بأنها ابنة أبيها، وأن لها عقلاً يمكن أن يهزمه في هذه الورطة، وعليها أن تستعمله.

وأخذت تتساءل مرة بعد مرة، عما بإمكانها أن تفعله، لقد قال ان ليس بإمكانها إعالة نفسها.

وعاد إلى ذاكرتها صوته يقول ساخراً. (ليس بإمكانك ان تكسبي قرشاً واحداً ولو صعدت إلى القمر.)

وفكرت كاسيا في ان هذا، لو كان صحيحاً، فلماذا إذن تعلمت وتثقفت كل تلك السنوات وعادت إلى البيت حاملة كل أنواع المكافآت؟

فقد كانت تشعر، وهي عائدة من باث، بزهو لا مثيل له، فقد كانت الأولى في صفها في خمس مواد.

والآن، وهي تفكر في ذلك، تذكرت بأن والدها لم يكن متبهراً بذلك كما كانت تأمل.

فقد قال لها: «هذا حسن جداً، أما الآن فيجب ان نبدأ بالتفكير في ما ستلبسينه عندما تستقبلك الملكة في قصر باكنغهام.»

والآن، أخذت كاسيا تقول ان لي عقلاً جيداً، ان عقلي ذو كفاءة بطبيعة الحال، وأنا سأثبت له انه مخطىء، وان بإمكاني أن أقف على قدمي، وأختار زوجي بنفسي.

وعادت تتمشى في الغرفة، وأثناء ذلك وقعت نظراتها على صحيفة ملقاة على مقعد امام المدفأة.

وتناولت صحيفة مورننغ بوست بتكاسل.

الفصل الثاني

ذهبت كاسيا إلى غرفة الجلوس حيث كانت تجلس دوماً مع أمها.

وهناك وقفت عند النافذة تنظر إلى الساحة في الخارج بعينين لا تريان.

هل من الممكن حقاً ان يتصرف أبوها بهذا الشكل؟ لقد كانت مصممة على ألا تخضع لإرادته. ولكنها، في نفس الوقت، كانت خائفة.

فقد كانت تعلم أن أباها لم يصل إلى القمة دون استعمال العزيمة وكذلك القسوة في اغلب الأحيان.

وطالما كانت تفكر في أنه كان يجهد نفسه في العمل لأنه كان يحب زوجته. فقد كان مصمماً على ان يمتلك كل شيء ضحت هي به بزواجها منه.

وكان الشخص الوحيد الذي كان بإمكانه القيام بمواجهة السير رولاند، هو زوجته.

وكاسيا تتذكر جيداً مبلغ مهارة أمها في إقناعه، سواء بإعطائها شيئاً تريده، أم بفعل شيء لا يريده.

ولكنها تعلم أن ليس بإمكانها أن تفعل نفس الشيء.

وفكرت يائسة، لو أن أمي فقط... كانت حية... لما تركته يتصرف بذلك الشكل المخيف.

إن بإمكانها، من ناحية ما، أن تفهم مشاعر أبيها. فهو قد بنى امبراطوريته بجهده الخاص.

وكانت تعلم أنها تحوي صفحة للاعلانات، قد تجد فيها شيئاً يهمها.

ولم تستطع ان تنطق بكلمة وهي تقرأ تحت عنوان "مطلوب، فقرة منتهية بعنوان يقع في ساحة باركلي. وكان هذا العنوان هو الذي لفت نظرها.

كان الاعلان يقول: «مطلوب مربية شابة لطفل في السابعة، الاتصال: السكرتير ٢٩ ساحة باركلي، لندن.»

وبعد أن قرأت ذلك مرتين وثلاثاً، انتبهت إلى أن رقم البيت هذا هو في الناحية الأخرى من الساحة.

فوضعت الصحيفة من يدها، ثم ذهبت إلى الردهة، فأخذت قبعتها التي كانت قد وضعتها على كرسي هناك عندما جاءت من الحديقة بسرعة.

وعندما فتح الخادم الباب الأمامي لها، قالت له: «إذا كان السيد يريدني، فاخبره بأنني مع صديقتي في الحديقة.»

«حسناً جداً، يا آنسة كاسيا.»

وبينما كانت كاسيا تهبط الدرجات، كانت تدرك ان صديقتها ومرافقتها لابد ذهبتا الآن.

وعندما فتحت بوابة الحديقة، شعرت بالإرتياح إذ لم تر اثراً لصديقتها هناك، وهكذا تابعت سيرها بحرية إلى الناحية الأخرى حيث فتحت البوابة الأخرى بالمفتاح الذي يملكه الساكنون في الحي.

عندما كانت ماتزال في المدرسة في باث، كانت دوماً تمضي عطلاتها في منزل أبيها في الريف.

ولهذا، لم تكن لديها سوى فكرة ضئيلة عن الساكنين الآخرين في ساحة باركلي هذه.

وعندما قرعت باب المنزل رقم ٢٩ انتبهت إلى وجود زخارف رائعة على المطرقة الفضية.

وفتح الباب على الفور، فقالت للخادم: «لقد جئت استجابة للاعلان.»

مضت لحظة بدا فيها عليه الدهشة، الا انه مالبث ان قال وكأنه عاد فتذكر: «سآخذك إلى السيد اشتون، يا سيدتي.» واغلق الباب، ثم سار أمامها في الممر.

وفي نهايته، قرع الخادم باباً هناك، ثم فتحه وهو يعلن: «هناك سيدة تريد رؤيتك يا سيدي.»

وأدركت كاسيا على الفور أن هذه غرفة السكرتير، فقد بدا واضحاً أن الرجل الجالس وراء المكتب، هو سكرتير صاحب المنزل.

وكان رجلاً متوسط السن ذا عينين متعبتين قليلاً.

وعندما رفع عينيه إليها، نهض واقفاً.

قالت: «لقد رأيت الاعلان في الصحيفة. وأحب ان اقدم طلباً للوظيفة المعلن عنها.»

فقال لها: «هل لك أن تتفضلي بالجلوس؟» وأشار إلى كرسي إلى الناحية الأخرى من مكتبه.

وجلست كاسيا، وبنظرة سريعة في أنحاء الغرفة، أدركت أن صاحب هذا المنزل، أياً كان، هو رجل على شيء من الأهمية، وكان على الجدران خرائط تخطيطية لأملاك واسعة. وكان هناك أيضاً لوحة قديمة لقصر، رسمت بالزيت. وشعرت بالسكرتير ينظر إليها متفحصاً.

ربما كان يرى أن ملابسها اكثر فخامة من ملابس المربيات. ولكن الواقع ان السيد اشتون كان يفكر في أن

أول متقدمة لهذا العمل الذي اعلن عنه، هي اكثر جمالاً وصبا من أن تصلح لذلك.

ولكن صغر السن، على كل حال، كان ما اشترطه في الاعلان، فالتقط قلمه وقال: «اظن ان علينا ان نبدأ بإعلامي عن اسمك.»

وكانت كاسيا قد سبق وفكرت بهذا الموضوع وهي تجتاز الساحة فقالت: «ان اسمي هو كايت واتسون.»

وكان هذا اسم إحدى مربياتها، وشعرت بأنه اسم ملائم تماماً.

فسألها: «هل لك بعض الخبرة في التعليم؟»

فشعرت بأن الأفضل أن تقول الحقيقة، فأجابت: «كلا، مع الأسف. ولكن لدي ثقافة عالية. فأنا اتكلم الفرنسية والإيطالية، وقد نلت مكافآت عدة في اكثر المواد في المنهاج المدرسي.»

فدوّن السيد أشتون هذا، ثم قال: «ان العمل الذي اعرضه، يا آنسة واتسون، هو عمل صعب.»

فسألته: «صعب؟»

«اظن ان علي ان اكون صادقاً فاقول انه صعب جداً. وكذلك عليّ ان اخبرك أنه رغم طلبي في الاعلان ان تكون المتقدمة شابة، فإنني لم اتوقع ان تكون صغيرة السن مثلك.»

فأجابت بسرعة: «إنني لست صغيرة السن إلى الحد الذي أبدو فيه، فأنا في الحادية والعشرين تقريباً.» ولم يكن هذا صحيحاً.

ولكن كاسيا كانت تريد أن تحصل على هذا العمل بأي ثمن وذلك لكي تبرهن لأبيها مدى الاعتماد على نفسها.

وكذلك يمكنها، إذا لم تستقم الأمور معها، أن تعود إلى بيتها على الفور.

ودوّن السيد أشتون اسمها وعمرها، ثم قال: «على كل حال، قد يكون في امكانك التعامل مع التلميذ الذي ابحث له عن مربية.»

فقالت: «هل تعني الولد الصغير؟ لماذا حالته صعبة؟»

أجاب السكرتير: «هذا هو السؤال الذي ليس له جواب. انها مسألة صعبة جداً، في الواقع.»

وسكت لحظة، وعندما لم تتكلم كاسيا، عاد يقول: «اظنك تعلمين اسم صاحب هذا البيت.»

فأجابته بلهجة صادقة: «ليس لدي فكرة عن ذلك.»

«إنه الدوق أوف دريفورن، الذي استلم اللقب منذ فترة قصيرة. إن عمه الدوق الراحل كان طاعناً في السن وبقي مريضاً لسنوات قبل وفاته.»

وكانت كاسيا تستمع باهتمام، ثم سألت: «هل هذا الولد الصغير الذي يحتاج إلى مربية هو إبن الدوق؟»

فأجاب السيد اشتون: «كلا بل ابن أخيه، لقد قتل والد الطفل أثناء الحرب، كما ماتت أمه بعد ذلك بوقت قصير.»

فتمتمت: «إنه يتيم إذن.»

«تماماً، يا آنسة واتسون، وهذا ما يقوي المشكلة.» فنظرت إليه متسائلة، فقال يوضح لها الأمر: «لقد اخذوا يرسلونه ليعيش في بيوت أقربائه واحداً بعد الآخر. ولم يكن يريده أحد منهم. وهكذا يمكن القول انه كان بدون بيت عدة سنين، وأخيراً أرسلوه إلى قصر عمه الدوق دريفورن بعد أن لم يبق هناك من يريده.»

«اظن القصر في الريف؟»

«نعم، يا آنسة واتسون، وآخر معلم للولد والذي كنت اخترته أنا، قد تركه قائلاً ان من المستحيل التعامل مع الولد، وانه لن يضيع المزيد من الوقت في محاولة تعليمه أي شيء.»

فقالت: «هذا ضعف منه.»

ولم يكن السيد اشتون يتوقع هذا التعليق، فاطلق ضحكة قصيرة ثم قال: «كان يمكن أن يكون هذا رأيي أنا أيضاً فيه، لو لم يسبقه عدد من المربيات والمعلمين إلى نفس هذا القول.»

فسالته: «لا اظن الصبي معاقاً عقلياً، أليس كذلك؟»

فهز رأسه قائلاً: «كلا، مطلقاً، إنه ليس كذلك. كل ما في الأمر أنه يرفض أن يتعلم. ويبدي كراهية شديدة لكل معلميه.»

«انك تقول إنه كان لديه عدد منهم، وهكذا، بإمكاني ان اتفهم الأمر، وربما بإمكاني ان انجح حيث فشل الآخرون.»

فسألها: «هل تريدين حقاً أن تتكفلي بهذه المهمة الصعبة؟» وكان في صوته شيء من الدهشة.

وكانت واثقة من أنه كان يعتبر أنها، بعد أن اطلعها على الحقيقة، ستتخلى عن اهتمامها بهذه الوظيفة.

فقالت ببطء: «هل لي بالقول إنني سأغامر بالقبول؟»

وعندما رأت السيد اشتون ينظر إليها متفحصاً، قالت بسرعة: «انني بحاجة ماسة إلى العمل فوراً، ويناسبني تماماً لو امكنني الذهاب إلى القصر غداً.»

فجذب السيد اشتون نفساً عميقاً: «اظن يا آنسة واتسون أن من المفروض ان اطلب منك اسماء كفلاء لك أو أوراق اعتماد.»

فقالت: «نعم، طبعاً، وأنا اعرف ان اللايدي مارغريت روس التي كانت ساكنة في هذا الحي، كان من الممكن ان تكفلني لو لم تمت منذ عام.»

وسكتت لحظة، ثم عادت تقول: «وهنالك أيضاً الكونتيسة مالفورد والتي تربطني بها قرابة بعيدة، ولكنها لسوء الحظ، تعيش في دربيشاير، والوصول اليها يستغرق وقتاً.»

ولم تكن كاسيا، في الحقيقة، قد قابلت الكونتيسة مالفورد قط من قبل، رغم ان أمها كانت دائمة التحدث عنها.

ولكنها كانت على كل حال، تظن أن بإمكانها ذكرها ككفيلة دون ان تستثير شكوك السيد أشتون.

وكان آخر مرة تحدثت فيها أمها عن الكونتيسة أوف مالفورد، كانت هذه في الثمانين تقريباً، ولم تكن صحتها جيدة بشكل ملحوظ.

وبدا ان السيد اشتون قد تاثر بهذه الأسماء اللامعة، ولكنه مازال يفكر في أن عليها أن تقدم أسماء كفلاء.

وسادت فترة صمت يتخللها الضيق. ثم سألها: «ألا تعرفين شخصاً آخر، يا آنسة واتسون يمكنه أن يكفلك؟»

فأجابت: «هناك كثيرون يمكنهم أن يخبروك بانني مجتهدة في عملي و... ذكية، ولكنني غير واثقة من انهم جميعاً من النبلاء.»

وضحك السيد أشتون، ثم قال: «سأخبرك بما سأفعله، يا آنسة واتسون، حيث انني رأيتك وتحدثت إليك، فأنا أيضاً سأغامر وارسلك إلى القصر.» وابتسم لها ثم تابع يقول: «ان سكرتير سيادته هناك، السيد بينيت، سيكون شاكراً للغاية إذا أنا ارسلت إليه أي واحدة حالياً، وأنا اعلم بانك ستبذلين

جهدك في العناية بالصبي سيمون إلى أن نجد مربية اكبر منك قليلاً.»

ورأت هي أن هذا يناسبها تماماً.

فقد كانت واثقة من أن أباها سيكون في منتهى القلق عندما يجدها قد غادرت البيت.

ولكن عليه أولاً أن يخضع لشروطها بالنسبة إلى زواجها من اللورد ستيفيلتون، إذا أرادها أن تعود.

سألته: «هل يمكنني الرحيل غداً؟»

فأجاب: «بكل تأكيد إذا أنت اخبرتني إلى أين ستأتي عربة السفر لتأخذك إلى القصر.»

فأعطته كاسيا عنوان إحدى صديقاتها، وكانت تسكن في ساحة إيزلينغتون.

كانت تلك إحدى زميلاتها في المدرسة، وقد كانت استلمت منها رسالة هذا الصباح فقط تقول فيها انها كانت تأمل في رؤيتها في لندن، ولكنها سقطت طريحة الفراش إثر التواء في كاحلها.

وأخذ السيد آشتون يدون العنوان.

سألها: «ما هو الوقت الذي يناسبك؟ يجب ان اخبرك أن الوصول إلى القصر يستغرق ثلاث ساعات.»

فأخذت كاسيا تفكر بسرعة.

كانت واثقة من أن أباها سيترك البيت الساعة التاسعة حسب عادته، حيث أنه يحضر غالباً اجتماع عمل في ذلك الوقت، في المدينة.

فقالت: «سأكون مستعدة في الساعة العاشرة.»

فقال: «وهذا يعني انك ستصلين إلى القصر في وقت

الغداء، سأرسل خادماً في الصباح الباكر ليخبر السيد بينيت ليكون في انتظارك.»

فقالت: «اشكرك، اشكرك جداً، وأنا اعدك بأن ابذل غاية جهدي. وعلى كل حال، إذا انا فشلت فأنا واثقة من انك ستقدر ذلك.»

فقال: «لقد كنت صريحاً معك، يا آنسة واتسون، كما انني سأشعر بخيبة أمل إذا أنت فشلت، وسيكون علي ان احاول مرة أخرى.»

فقالت كاسيا: «كل ما استطيع قوله هو أنني سأسعى جهدي.»

وإذ نهضت تمد يدها إليه تودعه، نظر إليها بدهشة: «ألم تنسي شيئاً هاماً، يا آنسة؟»

فسألته: «وما هو؟»

«اننا لم نتحدث عن راتبك.»

«آه! لقد نسيت هذا تماماً.»

فقال: «إنه شيء يعتبره أكثر الناس أهم من أي شيء آخر. سيدفع لك راتبك أسبوعياً أو شهرياً حسب رغبتك، كما أن الدوق رجل كريم.»

فقالت: «اظن اسبوعياً هو الأفضل. وإذا كان الدوق كريماً كما قلت، فأنا أرضى بأي شيء يراه هو مناسباً.»

فسجل السيد اشتون شيئاً امامه، ثم وقف وسار إلى الباب يفتحه لها وهو يقول: «كل ما يمكنني قوله، يا آنسة واتسون، هو انك مختلفة عن أي مربية سبق وتعاقدت معها من قبل، وقد انعشت في نفسي الأمل.»

فقالت: «إذن، فسأحاول أن لا اثبطه.»

ولم تدهش لقوله هذا، لأنه كان بادي الفضول

لشخصيتها هذه غير العادية، ما جعله يسير معها إلى الباب.

ولكنها لم تكن تريده أن يراها تعبر الحديقة إلى بيتها.

وهكذا صافحته، ثم سارت مسرعة في الشارع، وساورها شعور غير مؤكد بأنه واقف يراقبها. وهكذا تعمدت ان تسير حول الساحة إلى حيث بيتها.

وما أن استدارت عند أول زاوية، حتى حجبتها أشجار الحديقة عن مجال الرؤية.

ولتتأكد من أن احداً لن يراها، نزلت إلى القبو حيث انتظرت امام باب المطبخ عدة دقائق.

ثم عادت فصعدت مرة أخرى لتسير إلى الباب الأمامي فقرعته، وفتح لها الخادم الباب.

وعندما دخلت الردهة، سألته: «هل السيد في مكتبه؟»

أجاب الخادم: «كلا ياسيدتي، لقد خرج.»

وكان هذا ما كانت كاسيا تريده، وهكذا صعدت إلى غرفتها مباشرة.

لقد كانت هي وأبوها مدعوين هذه الليلة إلى حفلة تقديم فتاة إلى المجتمع.

وكانت كاسيا قد صممت على ألا تكون مستعدة قبل ان يكونوا حقاً في انتظارهما عند ابتداء حفلة العشاء.

فقد كانت ترى أن أباها لن يجد وقتاً للشجار معها أثناء تلك المسافة، القصيرة في العربة.

قالت تخاطب خادمتها الخاصة: «أريد ان اتناول فطوري صباح الغد في غرفتي يامولي، وليكن الساعة الثامنة.»

فأجابتها الخادمة: «أليس هذا الوقت مبكراً بالنسبة اليك يا سيدتي؟ ستكونين متعبة بعد حفلة الليلة.»

أجابت كاسيا: «انني لا انوي التأخر في الحفلة. ثم ان أبي يرافقني وهو يحب العودة مبكراً.»

وكان هذا صحيحاً. لقد كان يسر السير رولاند أن يرى النجاح الذي تحرزه ابنته في الحفلات التي تدعى إليها.

ولكن كثرة النظر إلى ساعته في الحفلة يجعل كاسيا تشعر بالذنب على الدوام.

ولكنها حدثت نفسها بأنه ينبغي عليها الاستمتاع بالحفلة هذه الليلة قدر إمكانها. فهي ستكون آخر حفلة تذهب إليها، وذلك لوقت لا تعرف مداه.

ولكنها كانت تعلم أن عليها كثيراً من العمل صباح الغد مادامت عربة الدوق ستأتي لاخذها الساعة العاشرة من منزل صديقتها في إيزلينغتون.

عندما نزلت من غرفتها، كان أبوها بانتظارها.

وكانت تبدو غاية في الجمال في أحد اثوابها الرائعة التي كانت اشترتها لحفلة تقديمها إلى المجتمع.

ولما لم يكن رآها منذ خرجت من مكتبه أمس، فقد كانت واثقة من أنه يظن نفسه قد كسب المعركة محدثاً نفسه بأنها قررت تشغيل عقلها.

وقد يكون ظن أنها تركت أمر تدبير مستقبلها إليه كما اعتاد أن يتدبر أمورها وكل ما يتعلق بها حتى الآن.

سألته وهي تدخل إلى الغرفة: «هل يعجبك ثوبي الجديد هذا يا أبي؟»

فأجاب: «انك تبدين جميلة جداً، يا حبيبتي، وانت الآن تشبهين أمك تماماً.»

وتخللت لهجته نبرة ألم جعلت كاسيا تشعر بالأسى

لأجله، وشعرت، للحظة، ان من الخطأ أن تسبب له أي قلق. ولكنها كانت مصممة على إنقاذ نفسها مما كانت تراه إذلالاً وتعاسة إذ تتزوج ممن لا تحب.

وكانت أمضت الليل تفكر في هذا الأمر، بالرغم منها، ومن حسن الحظ أن اللورد ستيفيلتون لم يكن في الحفلة، وظلت كاسيا تقارنه بالشبان الذين كانوا هناك. فقد كانوا جميعاً أصغر منه سناً بكثير، وهو الذي يبدو في بداية الأربعينات على الأقل.

فهو كما رأته، يماثل أباها طموحاً عندما كان في مثل سنه.

فكانت تعلم أنه سيسره ان يشترك في العمل الذي أتى لرولاند روس بكل هذا النجاح.

وكانت طوال الحفلة تتساءل كيف يسمح أبوها لنفسه، وهو الذي أمضى مع أمها قصة حب عنيفة، بأن يفرض عليها زواجاً دون حب.

فرأت كاسيا انه لا بد أن يكون أعمى وأصم إذا كان فعلاً يظن انها ستقبل الزواج من رجل لا تشعر نحوه بشيء، ولكنها كانت تشعر جيداً ماتعني لأبيها ثروته الضخمة التي أمضى اغلب عمره في اكتسابها وتجميعها.

وكذلك ماورثه من اعمال الشحن بالسفن والتي كان قد ساعد على ازدهارها، فقد اخذت تتضاعف معها ثروته وتتضاعف إلى أن اصبحت كجبل من ذهب عليه أن يحرص عليه بأي ثمن.

وفكرت يائسة في ان هذا يعني، بالطبع، التضحية بها... وسرعان ما تلاشى من نفسها شعور الأسى لأجله.

وعندما عادا معاً إلى البيت الساعة الواحدة صباحاً،

تعمدت ان تتحدث عن الحفلة، فقالت: «انك لاقيت نجاحاً ساحقاً، يا أبي. فقد رأيت كل تلك النسوة الجميلات قد صببن نظراتهن عليك.»

فقال بسرعة: «إذا كان الأمر كما تقولين، فأنا لم ألاحظ ذلك. انك تعلمين انني لا اقارن واحدة منهن بأمك.»

فقالت: «وماذا في ذلك؟ أظن أمي تريدك ان تسعد ببقية حياتك، فهي كانت دوماً ترى انك تجهد نفسك في العمل، والآن لا اظنك تريد ان تصبح اغنى مما انت عليه الآن.»

فقال: «اريد ان اصبح غنياً لاجلك ولأجل أولادك.»

ففكرت كاسيا في أنه إذا كان يتصور ان يكون لديها أولاداً، فلا بد أن يكونوا من اللورد ستيفيلتون، وارتجفت.

ثم قالت: «لقد ابتعدت بك التصورات يا أبي بينما أنا مازلت لم أقم حفلة تقديمي للمجتمع بعد.»

فقال: «انها ستكون أحسن حفلة في الموسم. وكل انسان سيتحدث عنها مدة طويلة بعد انتهائها.»

وسادت فترة صمت قال بعدها: «كل ما أريده منك، يا عزيزتي، هو ان تدعيني اعلن خطبتك للورد ستيفيلتون. وبعد ذلك، سيبتعد عنك صيادو الثروات.»

فقالت بصوت يغالبه النعاس: «إنني متعبة لا استطيع التحدث عن هذا الأمر هذه الليلة، يا أبي.»

فقال يوافقها: «نعم، نعم، طبعاً، إنني ذاهب إلى المدينة هذا الصباح، ولكننا سنتغدى معاً، إلا إذا كان لديك، طبعاً، اشغال أخرى.»

فقالت: «على كل حال، سأكون مستيقظة، في ذلك الوقت.»

وقبلت أباها في الردهة متمنية له نوماً هانئاً، ثم اسرعت إلى غرفتها.

كانت تعلم انه سيذهب أولاً إلى مكتبه ليرى إن كانت هنالك رسائل له.

وعندما استقرت كاسيا في سريرها، أدركت ان المساء قد مضى بشكل افضل مما كانت توقعته.

ولم يكن أمامها سوى أن تتمنى ألا يحدث غداً ما يعوقها عن اتمام خطتها.

وقالت تحدث نفسها، إن أبي مصمم تماماً على زواجي من اللورد ستيفيلتون. وأنا مصممة تماماً على ألا اتزوجه. وسنرى من هو الفائز في النهاية.

• • •

جاءت الخادمة بصينية الإفطار إلى غرفة كاسيا الساعة الثامنة صباحاً، حسب ما طلبت سيدتها.

وحالما انتهت من طعامها، نزلت من سريرها متجهة إلى خزانتها حيث اخذت تخرج منها أبسط ملابسها. راجية أن لا تكون عديمة التناسب كثيراً مع عملها الجديد كمربية.

ولكنها كانت تعلم، على كل حال، ان المربية العادية لا تستطيع شراء حتى ولا ثوباً واحداً منها.

ولكنها صممت على أن تجيب، إذا سألها احد عن ذلك، ان صديقة لها ثرية كانت منحتها لها.

ولكنها كانت تعلم بأن الدوق أوف دريفورن غير متزوج، وهذا يعني أنها لن تتعرض لأسئلة متعبة أو متشككة فيما لو كانت هناك امرأة في القصر.

وتذكرت ما كانت تسمعه عن الدوق من بعض الفتيات أثناء دعوات الغداء التي كانت تحضرها.

ذلك ان أباها كان يسعى لدى أمهات الفتيات اللاتي من سنها لدعوتها إلى حفلات الغداء والشاي حيث لا يحضر سوى حديثي السن.

ولكن كاسيا كانت ترى هذه الدعوات مملة بعض الشيء، فكانت تستمع إلى ما يتحدثن عنه، وكانت تدهش وهي ترى ما يتضمنه من غيبة وخوض في سير الآخرين.

وفي إحدى تلك الحفلات سمعت كاسيا أن الدوق أوف دريفورن هو أحد أبطال الحرب.

كما قالوا أيضاً انه مرتبط باللايدي جولي بارلو، والتي كانت ذات جمال لا يقاوم، وكانت كاسيا تتمنى لو تراها.

ولكن في الحفلات الثلاثة الكبرى التي كانت حضرتها، لم يكن هناك أثر للايدي جولي. ولا للدوق أوف دريفورن.

وتساءلت عما إذا كانت ستسنح لها فرصة رؤيتهما في القصر.

وعلى أية حال فهي، بصفتها مربية، ليس امامها إلا أن تتلصص عليهما من فوق درابزين السلالم.

ولا بد لها أيضاً من أن تختلس نظرة إليهما في الحديقة وذلك من إحدى النوافذ العليا، وضحكت من نفسها لهذه الفكرة، ولكنها كانت تعلم، في نفس الوقت، ان عليها أن تتوخى الحذر البالغ لكي تحفظ مركزها، والذي هو بالنسبة إلى مربية، يقع بين الطبقة العليا وبين الخدم.

وتذكرت ما كانت قالته أمها مرة: «انني دوماً أشعر بالأسى بالنسبة للمربيات. فهن دوماً وحيدات.»

فسألتها كاسيا: «لماذا تظنين ذلك، يا أمي؟»

أجابت الأم ببطء: «رغم انهن سيدات، فهن غير مقبولات في غرفة الجلوس مع سائر افراد الأسرة، وفي الوقت نفسه، لا يرغبن في عقد مودة حتى مع الخدم الأعلى مركزاً من غيرهم، وأنا دوماً اتساءل عما إذا كان يتملكهن الضجر عندما لا يرون من يتحدث معهن سوى الأطفال.»

وبعد ذلك، انتبهت كاسيا إلى ان أمها كانت دوماً تظهر نحو المربيات عناية ورقة خاصة.

وكانت احياناً، إذا كان ذلك ممكناً، تجعلهن يحضرن الحفلات التي كانت تقام في المنزل.

وحدثت نفسها قائلة، هذا هو مركزي الآن، وعلي ان اكون حذرة جداً فلا اتخطاه.

ونظرت إلى ساعة الحائط.

وعندما أدركت أن أباها لا بد غادر البيت الآن، قرعت الجرس لخادمتها الخاصة، ثم قالت لها: «إنني ذاهبة لأمكث عند صديقة لي في الريف، فاحزمي كل هذه الأشياء بسرعة إذ علي أن اكون في بيتها الساعة التاسعة والنصف.»

فقالت الخادمة: «حسناً، إن عليك أن تسرعي إذن يا آنسة كاسيا.»

ووضعت الملابس في الحقيبة بسرعة، بينما وضعت كاسيا على رأسها اكثر قبعاتها بساطة، وهي تفكر في أن عليها أن تنزع الأزهار والريش عن بعض قبعاتها الأخرى لتصبح اكثر ملائمة بالنسبة لعملها الجديد، وقررت ان تقوم بذلك حالما تصل إلى القصر.

وحوالي الساعة التاسعة والثلث، وقفت أمام الباب عربة الأجرة التي كانت طلبتها.

وعندما وصلت إلى الردهة، قال رئيس الخدم: «لم اكن اعلم انك ستغادرين المنزل، يا آنسة كاسيا.»

فأجابت: «سأغيب فقط ليلة أو نحوها. وساقيم في منزل فتاة تعرفت عليها الليلة الماضية وذلك لحضور حفلة سيقيمونها في الريف.»

فتظاهرت كاسيا بأنها لم تسمع ما قاله وهي تهبط السلم إلى حيث العربة فدخلتها وهي تعطي السائق العنوان في ايزلينغتون.

كانت تعلم أن هذا العنوان سيضلل أباها ولن يتمكن من تتبع آثارها من هناك.

وعندما ابتعدت بها العربة، نظرت في اتجاه منزل الدوق في الساحة.

وحدثتها نفسها أن هذه مغامرة كبيرة منها، ولكنها في نفس الوقت، ستجعل أباها في أشد الغضب منها.

قالت: «كم هو جميل منك أن تزورينني يا كاسيا. وشكراً لك لهداياك الجميلة هذه.»

فقالت كاسيا: «انني في طريقي إلى الريف، ولهذا لا استطيع البقاء معك فترة طويلة، ولكنني سأعود لرؤيتك حال عودتي.»

«هذا سيسرني جداً، كم تبدين حلوة أنيقة.»

ولكن كاسيا كانت ترى أن هذا آخر شيء عليها أن تبدو به بالنسبة لظروفها هذه.

وجلست تتحدث إلى صديقتها إلى أن جاء رئيس الخدم يخبرها بأن العربة قد وصلت لأجلها.

فقالت لها: «يجب ان اذهب، يا اليزابيت، انتبهي إلى نفسك ولا تحاولي السير قبل ان تشفى رجلك تماماً.»

فتنهدت اليزابيت: «ما أسوأ حظي في أن اصاب بهذا الالتواء في قدمي الآن، اعني لأنه لن يكون بإمكاني الذهاب إلى الحفلات.»

فقالت كاسيا: «انني واثقة من أن قدمك ستتعافى في خلال أسبوع واحد، وفي تلك الأثناء اكون أنا قد عدت.»

وقبلت صديقتها مودعة ثم هبطت السلالم وهي تفكر فيما إذا كان هذا صحيحاً.

كان لديها شعور بأن أباها لن يستسلم في وقت قصير.

كانت العربة التي تنتظرها هي عربة سفر، ومع انها كانت تبدو قديمة الطراز إلا أنها ادركت بسرور ان بإمكانها قطع مسافات بعيدة.

ذلك انه كان يقودها جوادان قويان لا بد أنهما سريعان.

جلست فيها بجانب السائق، وهي تسأله: «كم تستغرق الرحلة في رأيك؟»

الفصل الثالث

عندما تركت المنزل، اخذت معها هدية لصديقتها هي عبارة عن قارورة من العطر الفرنسي الثمين كانت قد ابتاعتها لنفسها.

كذلك كانت طلبت من الخادمة في آخر لحظة، أن تحضر لها باقة أزهار القرنفل التي كانت في زهرية في غرفة الجلوس. ولفتها الخادمة بشكل تتمكن معه من اهدائها إلى صديقتها.

لقد كانت أمها علمتها دوماً، أن عليها أن تأخذ معها هدية إلى من تزورهم أو تمكث عندهم.

كانت أمها تقول لها: «إنها عادة شرقية تعجبني تماماً.»

وكانت كاسيا تفكر، وهي تجلس في العربة، أن صديقتها اليزابيت ستسر برؤيتها.

وكانت هداياها ملقاة على المقعد الأمامي.

وعندما وصلت بها العربة إلى المنزل، دفعت للسائق اجرته وهي تخبره بأن لا ينتظرها.

ثم أخبرت الخادم المسن بأن عربة ستأتي لأجلها بعد حوالي ربع الساعة، قائلة له: «إن السائق سيسألك عن الآنسة واتسون.»

فسألها واضعاً يده خلف أذنه: «هل قلت، الآنسة دوبسن؟»

فأجابت: «نعم.»

وقادها الخادم إلى غرفة صديقتها التي كان سرورها لرؤيتها بالغاً.

فأجاب السائق: «سأقوم بكل ما في وسعي كي اصل في اقرب وقت ممكن، فهذان الجوادان هما افضل ما في اصطبلاتنا، ولكنني سمعت بأن سيادته سيبتاع العديد من الجياد التي نحن بحاجة إليها.»

كانت تعلم أن سائقي العربات وسائسي الخيل لا يرضيهم عدد الخيل مهما كثر.

وراودها الأمل في أن تتمكن من التنزه على ظهر جواد، فقد كانت وضعت في الحقيبة ثوب الركوب مع غيره من الملابس.

ولكنها، في نفس الوقت، فكرت وقد تملكها الضيق في أن المربيات لا يسمح لهن إلا بركوب عربات تجرها جياد الـ بوني الصغيرة الحجم.

ولم تتكلم كثيراً أثناء السفر، وإنما أخذت تفكر في تليمذها ذي السمعة الكئيبة هذه، وكيف تجعله يقبل بها معلمة له. كانت في اعماقها، واثقة من أنه في بعض النواحي لم يحصل على معاملة جيدة.

وإلا ما سبب هذا العداء منه لكل من يتولى أمره؟ وتذكرت ما كانت تقوله أمها من أن كل الأولاد بحاجة إلى حب.

فقد كان لا يسبب المشكلات في القرية سوى الأولاد الذين نشأوا في احوال بيتية صعبة، أو كان والداهما متفرقين.

ولأن السائق كان قد صمم على الوصول مبكراً، فقد وصلوا إلى القصر في الساعة الواحدة الا ربعاً.

وكان سروره واضحاً لوصوله بهذه السرعة غير المتوقعة، والتي هنأته كاسيا عليها.

وعندما صعدا الطريق المؤدي إلى القصر، رأت كاسيا القصر في نهايته. وكان منظره غاية في الروعة.

كان بالغ الاتساع، ولا بد ان القصر الأساسي قد اضيفت إليه ملحقات كثيرة على مدى القرون، وكانت كاسيا تحب الهندسة دوماً.

كان هناك جناح في ناحية واحدة كما ان القصر القديم نفسه كان قائماً في الناحية الأخرى من مجموعة مبان.

وفكرت كاسيا في مبلغ المتعة التي يجلبها في النفس اكتشاف انحائه.

وكان رجاؤها هو في أن تحصل لها هذه الفرصة قبل ان يرغمها مستخدمها على التزام غرفة الدرس.

وعندما اقتربوا من المبنى المركزي، نظرت إلى العمود الذي يحمل العلم، وكان موجوداً ولكن دون علم هناك.

ودلها هذا على أن الدوق غير موجود هناك، وشعرت لهذا بالإرتياح.

وساورها شعور بأنه ربما لن يعجبه أن يكون للصبي مربية صغيرة السن مثلها.

وقفت العربة امام درجات الباب الأمامي، حيث ركض خادم يفتح بابها.

ودخلت الردهة حيث تقدم لتحيتها رئيس خدم اشيب الشعر، قائلاً: «مساء الخير يا آنسة والتسون، لقد جاءنا خبر بقدومك، والسيد بينيت ينتظرك في مكتبه.»

ومشى امامها دون انتظار لجوابها، مجتازاً ممراً طويلاً.

ورأت أنها نفس الإجراءات التي أجريت في منزل ساحة بركلي في لندن.

ولكن غرفة السكرتير هنا كانت اكثر اتساعاً، كما كانت على الجدران خرائط اكثر عدداً.

وكان السيد بينيت يشبه السيد اشتون قليلاً ولكنه اكبر سناً.

وقف عند دخولها، مادّاً لها يده، قائلاً بأدب جم: «إنني مسرور برؤيتك، يا آنسة واتسون، لقد أرسل إليّ السيد اشتون يخبرني بقدومك، ولكنك وصلت قبل الوقت الذي كنت أتوقعه.»

فأجابت: «كانت الجياد تسير بسرعة.»

ورأت السكرتير ينظر إليها بدهشة بادية.

فظنت أنه سيخبرها، كما سبق وفعل السيد اشتون، بأنها اصغر من ان تصلح لهذا العمل.

وقال السيد بينيت: «تفضلي بالجلوس.»

فجلست حيث أشار على مقعد مقابل له، بينما أخذ هو ينظر في رسالة كان يحملها في يده، وهو يقول: «ان السيد اشتون يخبرني برغبتك في التعهد بتعليم الصبي سيمون هورن، وأنه قد أوضح لك كل شيء عن وضعه الصعب.»

فأجابت: «لقد كان السيد اشتون صريحاً تماماً، وقد اخبرته بانني سابذل غاية جهدي معه.»

فقال: «لا احد بإمكانه ان يقوم باكثر من ذلك، وأنا شاكر لك جداً محاولتك هذه.»

كان يتكلم بلهجة متعبة وكأنه لا يحب ان يفكر في الصعوبات المنتظرة.

ثم قالت كاسيا: «ما نوع تصرفاته التي اساءت إلى كل أولئك المعلمين.»

فأجاب: «حسناً، بالنسبة إلى الأخير منهم، والذي كان رجلاً ذكياً للغاية، اظهر له الصبي كراهية غير معقولة، وأخيراً رشقة بالمحبرة فأصابته في ذقنه ولطخت ثيابه بالحبر.»

فلم تستطع كاسيا أن تكتم ضحكها، وهي تقول: «كل ما أرجوه هو أن لا يحدث ذلك لي.»

فقال: «لقد اتخذت الاحتياطات لذلك بأن جعلتهم يبعدون المحابر من غرفة التدريس، واخبرت سيمون بأنه في المستقبل عليه ان يستعمل الاقلام فقط.»

فسألته: «وماذا كان جوابه على ذلك؟»

«قال إن ليس في نيته التعلم على كل حال.»

فقالت بمرح: «لقد اعددتني لأسوأ الفروض، والآن هل استطيع رؤيته؟»

فأجاب: «لقد فكرت في ان عليك ان تتناولي الغداء أولاً، ان سيمون يتناول غداءه الساعة الثانية عشرة والنصف في غرفة التدريس، ولكن ربما ستجدين أن من المناسب لك اكثر تناوله وحدك.»

فقالت: «شكراً، هذا لطف منك.»

«لقد اعلمت السيدة ميدوز مديرة المنزل أن من الأفضل لك عدم استعمال الغرفة الملاصقة لغرفة الصبي، ولكن غرفة أخرى في نفس الممر لها غرفة جلوس ملحقة بها.»

وتردد لحظة، ثم عاد يقول: «اشعر يا آنسة واتسون، بانك، من وقت لآخر، قد ترغبين في شيء من الراحة من واجباتك الشاقة. في هذه الحالة ستنوب عنك إحدى الخادمات.»

فقالت: «شكراً لك لأنك فكرت في كل شيء.»

نهضت وهي تتكلم، فمد السيد بينيت يده يجذب الجرس.

وفتح الباب على الفور ما جعل كاسيا تتأكد من أن الخادم كان ينتظر عند الباب.

قال له: «خذ الآنسة واتسون إلى الغرفة التي كانت

السيدة ميدوز قد خصصتها لها، وليس إلى غرفة التدريس.»

فأجاب الخادم: «إنني اعرفها يا سيدي.»

وعادت كاسيا تشكره وهي تغادر الغرفة.

كانت تدرك جيداً ان السيد بينيت كان ينظر إليها ببعض القلق، وكانه، كما رأت، كان واثقاً من انها اصغر من أن تنجح في هذا العمل.

سار الخادم امامها صاعداً السلالم.

ويبدو ان تفكيره كان مشابها لأنه قال لها عند منعطف السلم: «لقد وضعت نفسك في موضع صعب، يا آنسة.»

فسألته رغم انها كانت تعلم الجواب مسبقاً: «لماذا تقول ذلك؟»

«لأن السيد الصغير هو مشكلة حقيقية، والواقع أنه لم يستطع احد ان ينجح بإقناعه بالتعلم.»

فقالت: «ربما سأتمكن أنا من أن انجح في ذلك.»

فقال الخادم: «أتمنى لك حظاً طيباً.»

وتابع صعوده السلم الذي قادهما إلى الطابق الثاني، ومن هناك سارا في ممر حيث اجتازا باباً فكرت في انه قد يكون غرفة التدريس.

وبعد ذلك بقليل، وصل بها الخادم إلى غرفة استقبال صغيرة ولكنها جميلة حسنة التاثيث قامت في زاوية منها خزانة كتب، ثم قال: «هذه الغرفة كانت تستعملها مرافقة اللايدي المتوفاة، وقد كانت مغرمة جداً بالكتب، ويقولون ان الخادم كان لا ينفك يركض نحو المكتبة صاعداً هابطاً يحضر لها الكتب.»

فقالت كاسيا: «ربما أنا سأطلب نفس الشيء.»

فأجاب: «اطلبي ذلك مني وأنا سأحضر لك ما تريدينه،

ولا تدعي الحزن يمتلكك إذا ساءت معك الأمور. فهي لم تكن حسنة منذ جئت انا إلى هنا.»

ورأته بالغ الرقة نحوها وكذلك معجباً بها. وفكرت في ان المستخدمين، على الأقل، سيساندونها إذا لم يساندها أحد آخر.

واستدار الخادم نحو الباب قائلاً: «سأخبرهم أن يرسلوا إليك الغداء... آه، ذلك هو باب غرفة نومك.»

وأشار إلى باب يقع في ناحية من الغرفة، وهو يقول: «إذا كنت تريدينني، فليس عليك إلا ان تسألي عن جيم.»

فقالت: «سأفعل ذلك. وشكراً على مساعدتك لي.»

فقال: «بكل سرور، يا آنسة.»

وعندما وصل إلى الباب، قال: «كوني متفائلة، فقد لا تكون الأمور سيئة بالدرجة التي تظنين.»

فضحكت كاسيا، ودخلت غرفة نومها، لم تستطع ان تتصور ان يكلمها احد خدم أبيها بمثل هذه الإلفة، ولكنها حالياً ليست سوى مربية في نظرهم.

لم يكن جيم متحرراً في كلامه معها، ولكنه كان يعاملها بطريقة تناسب طبقتها.

خلعت المعطف الذي كانت ترتديه، وكذلك قبعتها، وكانت قد غلست يديها واوشكت على ان تنشفهما حين قرع الباب.

وعندما قالت ادخل، دخلت مديرة المنزل.

كانت كبيرة في السن، ورأتها كاسيا أشبه ما تكون بمديرة منزلها في الريف.

قالت السيدة ميدوز: «مساء الخير يا آنسة واتسون، اني آسفة حيث لم اكن موجودة للترحيب بك، ولكنك بكرت في القدوم عما كنا نتوقع.»

وكان اللوم يبدو في لهجتها، فقالت كاسيا: «لقد كانت الرحلة من لندن دون عائق، وأنا اعلم انك السيدة ميدوز.» ومدت يدها تصافحها.

وعادت كاسيا فانتبهت مرة أخرى إلى انها تبدو أصغر واكثر أناقة بالنسبة إلى مربية عادية، بينما كانت مديرة المنزل تقول: «ان غداءك قادم الآن. وحالما تنتهين منه، سآخذك لتتعرفي إلى السيد الصغير سيمون، هذا إذا لم يكن مختبئاً في مكان ما.»

فسالتها كاسيا: «وهل من عادته ان يختبىء؟»

فقالت السيدة ميدوز: «انك لا تعرفين ما قد يدور في خلده من وقت لآخر، لقد حاولت ان اجعل خادمة تلازمه ولكنه كان دوماً يروغ منها كلما خطر له ذلك. وبعد ذلك يبدأ التفتيش عنه والصياح إلى أن نعثر عليه.»

كانت تتحدث مع السيدة ميدوز وهما داخلتان إلى غرفة الجلوس، وكان الغداء قد احضره خادم على صينية وضعها على منضدة.

قالت السيدة ميدوز: «سأعود حالما تنتهين من طعامك.» ثم اتجهت نحو الباب، فقالت كاسيا: «اظنني مررت بغرفة التدريس التي هي على اليمين حين قدومي من السلم.»

فأجابت السيدة ميدوز: «هذا صحيح.»

فقالت كاسيا: «إذن، إذا لم يكن لديك مانع، فانا أحب أن اذهب إلى هناك دون أن يخبره أحد بقدومي، فقد يتيح لي هذا حظاً افضل مما لو علم مسبقاً بأنني معلمة أخرى.»

فقالت السيدة ميدوز: «كما تشائين، وعلى أية حال، فانا

أتوقع ان يكون ثمة من ذكر له وصولك، وبهذا يكون السيد الصغير متوقعاً قدومك.»

وساور كاسيا الرجاء في أن لا يكون ترحيبه بها بشكل غير سار مثل إلقاء المحبرة عليها مثلاً. ولكنها لم تقل شيئاً. وانما اخذت تتناول طعامها بصمت.

استمتعت كاسيا بطعامها، فقد كانت جائعة كما أن الطعام كان جيداً.

وبعد ان شربت فنجان قهوة، حدثت نفسها بشيء من الانفعال بأنها على استعداد للمعركة.

عندما فتحت الباب، سمعت وقع خطوات في الغرفة. وعندما دخلت، لم تدهش لمرأى صبي صغير واقف عند نافذة ينظر إلى الخارج، وكان ظهره إليها.

وعندما اغلقت الباب، قال: «إذا كنت مربية أخرى جاءت لتعليمي فاخرجي من هنا.»

كان صوته خشناً عدوانياً، فجمدت كاسيا في مكانها عند الباب. ثم قالت بصوت خافت: «أرجوك... أرجوك... ساعدني...»

فلم يُجب الصبي، عندذلك تقدمت إلى الأمام وهي تقول بهدوء: «إنني اريدك ان تساعدني، وإذا استمعت اليّ سأخبرك بالسبب.»

وتقدمت خطوتين منه، ثم توقفت.

وبعد فترة سكوت، أدار الصبي رأسه ونظر إليها يسالها: «لماذا تريدينني أن اساعدك؟»

فأجابت: «ذلك سر.»

فحملق فيها، فعادت تقول بصوت يكاد يكون همساً:

«إذهب وانظر إذا كان هنالك احد يستمع الينا خلف الباب.»

وشعرت لحظة بالخوف من أن يرفض.

ولكنه، وقد استيقظ فضوله، فتح الباب بعنف، ثم نظر يمنة ويسرة وعاد فاغلقه قائلاً: «لا يوجد احد.»

فقالت: «هذا حسن، والآن، بإمكاني أن اخبرك دون ان يسمعني احد.»

تقدم نحوها، ورأت أنه صبي ذو شعر قاتم ووجه معبّر. كان انيق الهندام، يرتدي ملابس ثمينة ولكن شريط حذائه كان غير مربوط.

وتكهنت بأنه لا يسمح لأحد بأن يربطه له.

جلست على الأريكة امام النافذة، بينما اتكأ سيمون على نهايتها وهو يسألها: «لقد كنت طلبت مني ان اساعدك. ماذا بإمكاني ان افعل؟»

فقالت: «إذا أنا اخبرتك، فهل تضع يدك على قلبك وتدعني بأن لا تخبر احداً آخر؟»

فسألها: «وما معنى ان اضع يدي على قلبي؟»

فأجابت: «معناه انك إذا اخلفت وعدك فسيحدث لك شيء فظيع.»

«شيء من أي نوع؟ هل سيطلق عليّ احد الرصاص؟ أو يضربني؟»

فقالت: «ربما تسقط من النافذة. أو تغرق في البحيرة.»

فقال: «انني إذن، سأضع يدي على قلبي.»

فقالت وهي تضع يدها على قلبها بطريقة معينة: «انك ستضع يدك هكذا.»

ففعل مثلها.

فقالت هامسة: «والآن، ان كل ما سأقوله لك هو سري

جداً جداً. لأنه إذا انت اخبرت احداً، فسيطردونني من هنا.»

فسألها: «ولماذا يطردونك؟»

فقالت ببطء: «لأنني لست مربية حقيقية، بل انا اتظاهر بذلك فقط.»

فتملك الصبي فضول بالغ، وسألها: «ولماذا كان عليك ان تتظاهري بأنك مربية؟»

فنظرت كاسيا حولها وكأنها خائفة من أن يكون ثمة أحد مختبئاً في الزاوية، ثم قالت وقد ازداد انخفاض صوتها: «إنني... إنني مختبئة.»

فجلس سيمون بجانبها: «ممن انت مختبئة؟»

«من رجل يريدني ان افعل شيئاً لا أريده، إنه شيء فظيع ودنيء.»

فسألها: «ولهذا جئت إلى هنا لتختبيء؟»

فأومأت برأسها قائلة: «نعم، إنني مختبئة هنا في القصر. ولن يعثر عليّ احد.»

وسكتت، ثم نظرت إليه قبل أن تعود فتقول: «هذا.. إذا قبلت أنت... أن تدعني امكث هنا.»

فقال: «يمكنك ان تبقي هنا إذا كنت لن تعلميني. إنني اكره الناس الذين يعلمون.»

فقالت: «إنني لا استطيع ان اعلمك لأنني لست مربية حقيقية. ولكن، في نفس الوقت، سيكون عليك ان تساعدني في ادعائي هذا... وإلا سيقول الناس هنا انني لست صالحة للتعليم... وسيجلبون لك مربية أخرى...»

ففكر سيمون لحظة، ثم قال: «إذا نحن تظاهرنا باننا نقوم بالدرس، فهم لن يعلموا بانك لا تعلمينني شيئاً.»

فقالت: «هذا صحيح، ولكن علينا ان نكون ماهرين جداً في

هذا الإدعاء، وبهذا لا يفكرون لحظة واحدة بأنني غشاشة.»

فقال بحزم: «أنا سأساعدك.»

فصرخت: «آه، شكراً... شكراً، ان من المهم جداً ان اختبىء حالياً هنا، ولكن إذا انت جعلتهم يطردونني، فسيتوجب عليّ ان اقوم بعمل فظيع يجعلني حزينة تعسة على الدوام.»

فقال: «إذا انا قلت لهم إنني اريدك ان تبقي هنا، فهم لن يطردوك.»

فقالت: «هذا كل ما أريده، ولكن يجب ان تفهم ان علينا أن نكون ماهرين جداً، وذلك لكي يصدقونا تماماً.»

فسألها: «وكيف نجعلهم يصدقوننا؟

ففكرت كاسيا لحظة، ثم قالت: «حيث أنني وصلت لتوي، احب ان اتفرج على الحديقة. وربما فيما بعد أو ربما غداً، يمكنني ان اتفرج على القصر.»

فقال: «سأريك أنا الحديقة.»

فقالت: «دعنا إذن نذهب الآن، فقد بدت لي جميلة جداً عند وصولي إلى القصر.»

«انك إذن لم تري الحديقة من الخلف، ولهذا سآخذك إلى هناك أولاً.»

فقالت: «هذا لطف كبير منك، وأنا شاكرة لك جداً لأنك قلت انك ستساعدني.»

فقال بصوت ناضج: «إنني لن أدع احدا يطردك من هنا.»

فقالت هامسة: «كما سبق وقلت لك، علينا أن نكون ماهرين جداً.»

فأجاب: «سنكون كذلك، والآن فلنذهب إلى الحديقة قبل ان يحاول أحد منعنا.»

واخذ كاسيا إلى الحديقة من خلال باب جانبي فلم يرهما أحد.

كانت الحديقة، كما توقعتها كاسيا، رائعة الجمال، وسار بها سيمون فوق المروج الخضراء، ثم اتبعا ممراً انعطف بهما ليسيرا بين الاشجار التي كانت تحجب القصر من الخلف، كثير من الأشجار كانت بالغة القدم. وعندما وصلا إلى سنديانة ضخمة، قالت كاسيا: «هذه شجرة تصلح للاختفاء فيها.»

فقال: «ليس مسموحاً لي بتسلق الأشجار.»

فقالت: «ولكنني مسموح لي بذلك. وإذا نحن اختبأنا بين الفروع فلن يعثر علينا احد.»

فقال بلهجة شاكية: «طالما تمنيت ان اتسلق شجرة ولكن لم يسمح لي احد بتجربة ذلك. انهم يقولون انني ربما اسقط واضر بنفسي.»

فقالت: «انك طبعاً لن تتصرف بمثل هذا الغباء، أنا سأريك كيف تتسلق شجرة، ولكن أولاً علينا ان نخلع احذيتنا.»

خلعت حذاءها، وفعل سيمون مثلها، ودون اهتمام بثوبها الجميل، اخذت ترفع نفسها متمكسة بفرع منخفض.

أخذ سيمون يراقبها، وبعد ذلك تمسك بفرع آخر. وكانت هي قد اختارت بعناية شجرة سهلة التسلق، رغم أنها كانت طوال حياتها تتسلق الأشجار، وكانت أمها تشجعها على ذلك، بقولها: «كنت دوماً اتسلق شجرة عندما كنت أريد أن اختبىء من مربيتي، وكنت اشعر بالسرور وأنا أراها تناديني بينما اكون أنا فوقها تماماً مختبئة بين اوراقها. ولكنني كنت كثيراً ما اتلقى العقاب لاتلافي ملابسي.»

وصل إليها سيمون دون مساعدة منها.

وفكرت ان من اسباب سوء طباعه، انه لم يكن مسموحاً له مطلقاً بحرية الحركة واللعب. وحدثت نفسها بأن هذا، في الواقع، درسه الأول، وأنه درس جيد تماماً.

وجلس سيمون بجانبها على فرع كبير وقد تدلت ساقاه، وهو يهتف مبتهجاً: «لقد فعلتها، لقد فعلتها.»

فابتسمت قائلة: «لقد فعلتها طبعاً، والآن اصبحنا من العلو بحيث لن يعثر علينا احد.»

وكانت أوراق شجرة السنديان كثيفة للغاية.

فأزاحت بيدها قليلاً من الأوراق فاصبح بإمكانها أن تعاود النظر إلى الحديقة والبحيرة تحت المنزل.

وكان ثمة مرج خلف الشجرة كانت هي واثقة من رؤيتها غزالاً مرقطاً فيه.

عند ذلك قال سيمون: «هنالك شخص قادم.»

همست له: «لا تتحرك فيعلم أننا هنا.»

واطلقت من يدها أوراق الشجرة التي كانت تزيحها من امام وجهها، وبهذا اختفيا عن العيان.

كان الدوق قد وصل قبل ساعتين، فابتدأ العمل حال وصوله.

أرسل يستدعي مدير الأملاك حيث أخبره بأنه يريد ان يعاني المزارع ويستمع إلى ما يقوله المزارعون عن قطعانهم ومحاصيلهم.

وقال المدير انه سيأخذ الدوق في اليوم التالي لمعاينة أربع مزارع، مقترحاً أن يشرعا بذلك بعد تناول إفطار مبكر.

ووافق الدوق على ذلك.

فقد كان يعرف ان المدير سينبه المزارعين إلى هذه الزيارة وذلك لينظموا امورهم ويبدو في أحسن مظهر. ثم

اجتمع بالسيد بينيت واخبره بأنه يريد أن يرى الدهانين والنجارين والبنائين.

فقال السيد بينيت: «انهم سيحضرون غداً العصر، ياسيادة الدوق. انهم جميعاً في اعمالهم، وجمعهم الآن سيستغرق وقتاً طويلاً.»

وهكذا ادرك أن لديه الآن أمسية دون عمل في حين كان يتوقع أن يكون مشغولاً اثناءها تماماً.

وقرر أن يذهب إلى الاسطبلات ليرى الجياد الجديدة التي كانت وصلت قبل فترة.

وكان يريد ان يخبر كبير السائسين بان المزيد من الجياد ستصل اليوم أو غداً.

وكان قد اشترى عدداً منها من غرفة مزاد تاترسال طالباً تزويده بالمزيد فيما بعد.

وكان السيد اشتون قد اخبره قبل ان يترك لندن ان طلبه قد قبل. والآن لم يبق سوى حضورها والذي كان قد تدبر أمره سائسو اسطبلاته في منزله في لندن.

وكان السيد بينيت قد وضع قائمة بالأعمال التي يحتاجها القصر.

وكان الدوق، بعدما فرغ من غدائه، قد قرأ هذه القائمة قبل ان ينزل إلى الحديقة، حيث أخذ يسير في انحائها وهو يفكر في أنه لا بد احمق إذ يبقى في لندن بينما الريف يزخر بكل هذا الجمال. فلا شيء اكثر منه هدوءاً وأمناً.

وفجأة، وهو يعبر المرج، تذكر أنه نسي مسألة ابن أخيه الصغير وكم هو متعب. وهكذا ساوره شعور بالذنب.

فقد كان مولعاً باخيه، وقد شعر بحزن بالغ لمقتله.

وبعد انتهاء الحرب، امضى سنتين في جيش الاحتلال

في فرنسا. ولم يعلم إلا بعد رجوعه إلى انكلترا، ان ابن أخيه يسبب لأقاربه كل هذه المتاعب. وكانت زوجة أخيه تشارلس قد ماتت بعد مقتل زوجها بعام واحد. واخذ ابنها من بيته الذي كان عرضه الأوصياء عليه للبيع.

ومكث الطفل وحاضنته أولاً في منزل احدى خالاته.

ولكنها مالبثت ان احتجت بان اضافة شخصين إلى أسرتها هو كثير عليها.

عند ذلك أرسل الصبي إلى احد اقرباء والده وكانت عمة مسنة سرعان ماوجدت أن صبياً صغيراً هو عبء لا يحتمل.

وهكذا بقي يتنقل من بيت لآخر.

وأخيراً علم الدوق ان كل الأقرباء الذين احضرهم الأوصياء على الصبي، قد رفضوا تسلم مسؤوليته، ولم يبق مكان له سوى قصر دريفورن، وكان الدوق قد قال هازلاً: «في القصر مكان لفرقة من الصبية، ولهذا، سيكون من السهل ان يستوعب سيمون.»

ولكنه، حينذاك، لم يكن يعلم بمشكلة تعليم سيمون لقد كان أبوه سجل اسمه في كلية ايتون حال ولادته تقريباً.

وسرعان مادرك الدوق ان لا كلية ايتون ولا سواها ستقبل سيمون إذا بقي جاهلاً كما هو حالياً.

وكان قد اعطى تعليماته للسيد اشتون وكذلك للسيد بينيت بأن يعلنا في الصحف عن طلب مربيات وبعد ذلك معلمين.

فكانوا يتتابعون واحداً بعد الآخر، لكي يسرعوا بالرحيل واحداً بعد الآخر.

وكان الدوق متلهفاً إلى القيام بكل ما يمكنه لأجل ابن أخيه. ولكنه، في الحقيقة، لم يكن يملك الوقت الكافي

للاهتمام بصبي صغير في الوقت الذي كانت فيه لندن حافلة بكل ما يستدعي اهتمامه من التسلية.

ولكنه كان يظن أن ليس ثمة صبي لا يمكن أن يجد مجالاً للاستمتاع في مكان خلاب مثل هذا القصر.

تابع سيره وهو يفكر كيف ان القصر كان يخلب لبه عندما كان صغيراً.

وكان والداه يعيشان على بعد عدة اميال فقط، فكان غالباً ما يذهب معهما إلى القصر، وهناك، كان بإمكانه ان يلعب مع أولاد عمه الذين كانوا يماثلونه سناً تقريباً.

كانوا اغنياء ويملكون كل ما يتمنونه، وكانوا يشركونه معهم في كل شيء حتى بجيادهم.

كان يسبح معهم في البحيرة، ويتسابق معهم في قفز الحواجز على ظهور الخيل، ولم يكن يخطر بباله قط انه، يوماً ما، سيكون هو صاحب هذا القصر.

تابع سيره صاعداً الممر القصير الذي كان يتذكره جيداً، فقد كان ينتهي عند آخر الغابة حيث يشرف من هناك على منظر رائع. وإذا به وهو يمر بإحدى اشجار السنديان الضخمة، يرى شيئاً أبيض على الأرض تحتها.

نظر وقد ملأته الدهشة إلى حذاء أنيق أبيض، ومالبث ان رأى بجانبه حذاء آخر لصبي صغير.

الفصل الرابع

وقف الدوق لحظة ينظر إلى الحذائين، ثم رفع رأسه. كانت أوراق الشجرة كثيفة للغاية.

ولكنه ما لبث أن رأى فوقه تماماً تقريباً، عينين كبيرتين تحدقان منه.

وعادت الأوراق تتراكم، فتقدم إلى الأمام.

وعندما التصق بجذع الشجرة، عاد فرفع عينيه.

كانت تجلس على فرع فوقه فتاة صغيرة في منتهى الجاذبية.

كان لها وجه صغير بشكل القلب، وكانت العينان وهما اللتان سبق ورآهما من خلال أوراق الشجرة كانتا كبيرتين تقريباً بالنسبة إلى وجهها.

ثم انتبه إلى أن ابن أخيه على مقربة منها.

فقال: «مرحباً يا سيمون. يبدو أنك تستمتع بوقتك جيداً. ومن هي صديقتك هذه؟»

وإذ رأت كاسيا الاستياء على وجه الصبي، سارعت تقول: «إنني المربية الجديدة، يا سيادة الدوق، واسمي هو واتسون.»

فحملق فيها الدوق وكأنه لا يصدق أذنيه.

وبعد سكوت طويل كان الواحد منهما يحدق في الآخر، قال: «وهل تريدين أن تخبريني، يا آنسة واتسون، أن ما تقومان به هو درس؟»

أجابت: «طبعاً يا سيادة الدوق، إنه درس في الطبيعة مصحوبة برياضة جسدية.»

فصدرت عنه ضحكة قصيرة وكأنه لم يستطع كبحها، ثم قال: «على أي حال، علي أن لا أتدخل. ولكنني أرجو، بعد أن أعود من الاصطبل، أن تتناولا الشاي معي أنتما الاثنين.»

ثم استدار وعاد من حيث أتى.

وعندما ابتعد، قال سيمون: «إنه عمي دارسي.»

فأجابت: «لقد أدركت ذلك. ولكنني لم أكن أظنه موجوداً لأنني لم أشاهد العلم مرفوعاً فوق واجهة القصر.»

مرت لحظة صمت، قال سيمون بعدها وكأن الكلمات تسحب من بين شفتيه سحباً.

«لقد مزقت العلم فأخذوه لاصلاحه.»

فسألته: «مزقته؟ وكيف أمكنك القيام بذلك؟»

فقال: «كنت قد صعدت إلى السطح، فغضب السيد جاكسون جداً. وأخذ يجرني لكي ينزلني، ولكنني تمسكت بالعلم.»

فقالت: «وهكذا تمزق. أظن بإمكانهم رتقه. أو بإمكانهم شراء علم جديد.»

فتابع سيمون: «وقد حاول السيد جاكسون عقابي، وذلك يجعلني أكتب عشرين مرة يجب أن لا أصعد إلى السطح.»

فسألته: «وهل فعلت ذلك؟»

فقال بلهجة تحمل استمتاع المنتقم: «لقد رشقته بالمحبرة.»

فضحكت كاسيا، ثم قالت: «لقد سمعت بهذه الحادثة. أرجو أن لا ترشقني أنا أيضاً بواحدة.»

فأجاب: «كلا بالطبع، لأنك لن تجعليني اكتب شيئاً سخيفاً كهذا.»

فقالت بعد سكوت قصير: «ربما سيكون عليك أن تتظاهر بالكتابة، لأن عمك سيسأل عما تتعلمه.»

فأخذ سيمون يفكر بكلامها هذا. ولكن قبل أن يقول شيئاً، قالت كاسيا: «دعنا نذهب إلى خارج الغابة، إلى أن يخرج عمك من الاصطبل. إنني أريد أن أتفرج على الجياد. هل تحسن الركوب؟»

فأجاب: «إني أكره الركوب.»

فرددت كلامه: «تكره الركوب؟ وكيف يمكنك أن تكرهه؟ أظن هذا أجمل شيء يقوم به المرء.»

فقال سيمون: «إنهم يجعلونني أركب بوني صغيراً. ثم يجره السائس بي.»

فهتفت: «هذا أمر بالغ الغباء، إنك طبعاً كبير إلى حد يمكنك فيه أن تمسك اللجام بنفسك. كما أنك بحاجة إلى حصان. حصان كبير.»

فقال متذمراً: «إنهم لا يسمحون لي بأن يكون لديّ حصان.»

فقالت: «إنهم سيسمحون لك بذلك إذا أنا أصررت على هذا الأمر. وأنا أحب كثيراً أن أركب معك. آه، أرجوك يا سيمون، دعنا نتنزه معاً على صهوة الخيل. إن هذا شيء بالغ المتعة.»

فسألها: «وسيكون لي حصان؟»

«أنا واثقة من أن بإمكاني أن أجعلهم يعطونك ما تريد.»

وكانت تفكر في أن الأمر سيكون سهلاً لو أنهما ذهبا، بكل بساطة، إلى الاصطبل وأمرا بأن يكون لهما جوادان. قالت: «سأخبرك بما سنفعله. إننا لن نقول شيئاً في الوقت

الحاضر. ولكن غداً في الصباح الباكر، وربما قبل أن يستيقظ عمك، سأذهب إلى الاصطبل واختار الجوادين اللذين سنركبهما.» وابتسمت له قبل أن تتابع قائلة: «عند ذلك، إذا أنت استمتعت بالركوب ولم تقع، فهم لن يمنعوك من الركوب بعد ذلك.»

فقال: «يبدو أنها فكرة ممتازة.»

قالت: «والآن أنا سأنزل. يمكنك أن تتبعني، ولكن دعني أنزل أولاً.»

وتأرجحت برشاقة هابطة نحو الأرض متعلقة بالفرع بيدها، ثم ما لبثت أن قفزت المسافة القصيرة التي بقيت بين قدميها والأرض.

وكانت الأرض طرية مغطاة بالطحالب.

فأدركت أن سيمون إذا وقع، فلن يصيبه ضرر، فعلمته كيف ينزل.

أطاعها هو، ولكنه سقط على ركبتيه. ولم يتضرر بشيء، قال وهو ينهض: «كان هذا شيئاً ممتعاً.»

فقالت: «كنت واثقة من أن هذا سيعجبك. إننا بعد ذلك سنتسلق أشجاراً أعلى كثيراً حيث لا يمكن لأحد أن يعثر علينا.»

فقال: «نعم، فلنفعل ذلك.»

وسارا إلى طرف الغابة حيث كان الدوق قد نوى أن يقوم بذلك من قبل.

وعندما رأت كاسيا المنظر الممتد أمامها إلى حيث الأفق اللانهائي، انحبست منها الأنفاس. لقد شعرت، بجمال المنظر، وكأنها ترى العالم من ناحية مختلفة لم تعرفها من قبل.

ثم، وكأنها عادت إلى الأرض مرة أخرى، تذكرت أن سيمون معها، فقالت له: «والآن، بعد أن أريتني هذا المنظر الرائع، إلى أين سنذهب الآن؟»

فقال: «فلنذهب إلى الاصطبل. إنني واثق من أن عمي دراسي لا يمكث هناك طويلاً.»

فسألته: «ولماذا تظن ذلك؟»

فأجاب: «إنهم دوماً يقولون إنه، بعد أن أصبح دوقاً، لديه أعمال كثيرة.»

فأدركت كاسيا من جوابه هذا أنه يهتم حقاً بما يدور حوله. وبينما كانا يسيران في الغابة، قالت له: «إنني أحب الغابات كثيراً، وعندما كنت صغيرة، كان عندنا في بيتنا بحيرة كنت اعتقد بأنها مليئة بعرائس البحر.»

فقال: «كانت حاضنتي تحكي لي حكايات عنهن.»

فسألته: «وأين هي حاضنتك الآن؟»

فأجاب: «لقد طرودها، قالت العمة مارتا انني أكبر من أن أحتاج حاضنة الآن. ولكن حاضنتي قالت إن السبب هو أنها خسيسة تبخل عليها بلقمة الطعام.»

فقالت له بعطف: «إني واثقة من أنك تفتقدها.»

فقال: «لقد كنت هربت لكي أفتش عنها، ولكنهم أعادوني وكانوا غاضبين مني جداً.»

فتعجبت كاسيا من هذه المعاملة الغريبة له والتي تؤلم أي صبي حساس.

ولكنها لم تقل شيئاً. وبدلاً من ذلك أخذت تحدثه عن الانكليز القدماء الذين كانوا يتربصون في الغابات لجيش الرومان الغازي، فيقتلونهم.

وانتهت من القصة في الوقت الذي ظهر فيه الاصطبل للعيان.

فوقفت خلف أجمة وهي تقول: «دعنا نختلس النظر لنتأكد من أن عمك غير موجود.»

فسر سيمون بهذا العمل، وأخذا يتسللان خلال الأجمة إلى أن تأكدا من أن فناء الاصطبل خالي.

وخرج أحد الغلمان من الاصطبل حاملاً دلواً وهو يصفر بفمه، ما جعل كاسيا تفكر في أنه ما كان ليتصرف بهذا الشكل لو أن الدوق كان موجوداً.

وهكذا تقدمت مع سيمون.

وبسرعة طلبت منه أن يريهما الجياد بنفسه، رغم أنه بعد فترة أقبل نحوهما رجل ناضج السن فتقدمت كاسيا إليه مادة يدها وهي تقول: «يجب أن أقدم نفسي. إنني الآنسة واتسون المربية الجديدة أريد أن يريني تلميذي سيمون الجياد.»

فأجاب: «إن لدينا بعض الجياد الجديدة الممتازة.»

وعلمت هي فيما بعد أنه رئيس السائسين.

قالت: «شعرت بأنه لا بد لديك ذلك، وبما أنني مغرمة بالجياد فأنا أتمنى رؤيتها.»

وكان سيمون قد توجه نحو مربط أحد الجياد حيث أخذ يصيح بها: «تعالي وانظري هذا الجواد يا آنسة واتسون.»

وما أن توجهت نحوه، حتى قال رئيس السائسين: «هذا الجواد موجود عندنا منذ بعض الوقت وهو حيوان لطيف جداً.»

وفي داخل المربط، كان سيمون يربت على مهرة رأت كاسيا أنها حسنة التنشئة.

وكان واضحاً أن المهرة كانت مسرورة باهتمام الصبي

بها. فقالت كاسيا له انها ستطلب إليهم أن يسرجوها لأجله عند الصباح.

وعلى كل حال، فهي لم تذكر شيئاً عن الركوب. وإنما أخذت تتنقل من مربط إلى آخر حيث رأت أن الجياد الجديدة التي وصلت من لندن هي من أفخر أنواع الجياد التي رأتها في حياتها.

أما سيمون فقد عاد إلى المهرة والتي كان اسمها برنسيس.

وقال بفرح: «إنها تحبني.»

وحدثت كاسيا نفسها أن ابتهاجه هذا بمحبة المهرة له سببه أنه لم يكن يلمس حباً من أحد.

على كل حال، كان الوقت يمضي، وحيث أنه كان مع عمه، فقد أصرت عليه كاسيا بالعودة إلى القصر.

وعندما أصبحا وحدهما، قال لها: «سأعود غداً لأرى برنسيس.»

فقالت له: «يمكنك أن تمتطيها إذا شئت.»

فلمعت عيناه وسألها: «هل يمكنني ذلك حقاً؟»

فأجابت: «أنا واثقة من أن بإمكانك ذلك ولكن لا تذكر ذلك لإنسان لئلا يمنعك أحد.»

قال شاكياً: «من المؤكد أنهم سيمنعونني. إن كل شخص يقول لا عندما أريد أن أفعل أي شيء.»

فقالت: «ولكنك قلت لي نعم، عندما طلبت منك أن تساعدني على الاختباء. ولهذا كن حريصاً على التصرف.»

فقال بغضب: «لن أدع عمي دارسي يطردك.»

فقالت كاسيا: «إنني أريد البقاء، ولهذا أرجوك يا سيمون

أن تكون مؤدباً، ودعه يظن أنك ستجتهد في دروسك.»

وظنت أن سيمون سيحتج بالنسبة لكلمة دروس، فأضافت: «عمك والسيد بينيت وكل الآخرين يظنوني أصغر من أن أصلح لأكون مربية لك. ولهذا علينا أن نكون في منتهى المهارة في إقناعهم بانني أعلمك كثيراً من الأشياء المفروض أن تتعلمها.»

فأومأ برأسه ما جعلها تدرك أنه فهم ما تقصده.

صعدا إلى غرفة التدريس في الطابق الأعلى حيث أقنعته بتغيير ملابسه. وذهبت هي إلى غرفتها.

وإذ كان على ثوبها بقع قذرة من جراء تسلقها الشجرة، فقد غيرته بسرعة بثوب غيره كانت تعلم أنه أفخر من أن ترتديه مربية.

ولكنه كان أبسط ملابسها التي أحضرتها معها.

نزلت هي وسيمون إلى الطابق الأسفل حيث كان الدوق جالساً في غرفة بالغة الجمال تطل على حديقة ورود خلف القصر. وكان أغلب الأثاث فرنسي الطراز.

ورأت كاسيا على الفور عدة لوحات على الجدران لفنانين فرنسيين.

وكان الدوق، لدى دخولهما، يقرأ في صحيفة فوضعها جانباً وهب واقفاً وهو يقول: «لقد وصلتما في الوقت المناسب، لأن الشاي قد وصل للتو.»

فقالت: «لقد ذهبنا إلى نهاية الغابة، يا سيادة الدوق، حيث يوجد أجمل منظر رأيته في حياتي.»

فقال الدوق: «إنه المنظر الذي أستمتع به دوماً. وماذا تظنين فائدته بالنسبة إلى سيمون؟»

رأت أنه يمتحنها، فقالت ببساطة: «أظن أن ذلك جعله يشعر بأنه ينظر إلى الناس من الأعلى، وأن علينا جميعاً، بأي شكل كان، أن نحاول قيادتهم ومساعدتهم.»

فنظر إليها الدوق ذاهلاً، ثم قال: «هل لك بأن تسكبي الشاي، يا آنسة واتسون؟»

وكان على المنضدة أمام الأريكة، طقم شاي رائع من الفضة، فجلست تسكب الشاي في الأكواب الصينية.

وأثناء ذلك، قالت دون تفكير: «لدينا في البيت مثل طقم الشاي هذا، وكلما رأيته أفكر في مقدار جماله.»

وسرعان ما تذكرت، بعد الصمت المحرج الذي تلا كلامها هذا، أن من غير المعقول أن يحتوي منزل مربية على مثل هذه الأشياء النفيسة.

ولم يقل الدوق شيئاً، ولكنه أخذ من يدها كوب الشاي الذي قدمته إليه.

استدارت نحو سيمون: «هل تريد شاي يا سيمون، أم لعلك تفضل الحليب أو عصير الليمون؟»

فأجاب سيمون: «إنهم لن يعطوني عصير ليمون. فقد قالوا إن ليس لديهم ليمون.»

فضحك الدوق قائلاً: «إذا كانوا قالوا ذلك أمس، فلا بد أنه أصبح لديهم الآن.»

وقرع الجرس، وعندما فتح الباب، قال: «سيمون يريد عصير الليمون بدلاً من الشاي. وليكن موجوداً لأجله على الدوام في المستقبل.»

فأجاب رئيس الخدم: «حسناً جداً يا سيدي.»

فقالت كاسيا: «هذا لطف بالغ منك.»

وأثناء كلامها هذا، نظرت إلى سيمون وغمزته بعينها ففهم وقال: «أشكرك يا عمي دارسي، إني أحب عصير الليمون.»

فقال الدوق: «وأنا كنت أحبه عندما كنت في سنك وكنت سأتمتع به أيضاً لو كان بإمكاني الحصول عليه أثناء الحرب.»

فقالت كاسيا ضارعة: «آه، حدثنا عن الحرب. إنني أعلم أنك قمت فيها بأعمال رائعة وحصلت على أوسمة كثيرة، ولكنني واثقة من أن سيمون لم يخبره أحد عن كل هذا.»

فبدت الدهشة على الدوق. لقد كان يظن أن هذا حديث عادي يجري في القصر قبل أي مكان آخر.

وقال سيمون: «إنهم لا يتحدثون معي عن الحرب. لأنني عندما كنت أعيش في بيت ابنة عمي إيمي قلت إنني سأكون مثل عمي دارسي وأطلق النار على كل أعدائنا.»

فضحك الدوق، قائلاً: «لا يدهشني أنك أخفتهم.»

فقال سيمون: «كنت أريد أن أكون مثلك.»

فقال الدوق: «سأخبرك ببعض القصص عن الحرب ولكنني حالياً أريد أن أواجه السلام، وهذا يعني أن هناك كثيراً من الأشياء عليّ القيام بها هنا في القصر وخارجه.»

فقالت كاسيا: «إني واثقة من أن سيمون سيحب أن يساعدك.»

وأدركت وهي تقول هذا بأن هذه فكرة لم تخطر ببال الدوق من قبل.

وفكر هو بسرعة عما يمكن أن يقوم به الصبي. ثم قال بصوت مرتفع: «طبعاً، فأنا سأكون بحاجة إلى كل مساعدة

يمكنني الحصول عليها في الواقع، سأكون شاكراً لو أنكما، أنت وسيمون، تدوّنان لأجلي كل شيء ترونه في القصر بحاجة إلى إصلاح، كالدهان مثلاً أو أي شيء آخر وبعد ذلك يمكنكما أن تضيفا ما تجدانه خارجاً.»

وأدركت كاسيا أنه يحمل ابن أخيه، الذي يرفض تلقي أية دروس، على الكتابة بطريق غير مباشر.

فقالت: «هذه فكرة ممتازة. إننا، أنا وسيمون سنجري سباقاً بيننا لنرى من منا يدون في قائمته مواداً أكثر عدداً.»

فغمز الدوق بعينيه قائلاً: «أظنكما، في هذه الحالة، تتوقعان مني أن أخصص جائزة للفائز في النهاية.»

فأجابت: «طبعاً، وإلا فقد التسابق متعته.»

ورأت سيمون يفكر في الأمر.

ولأنها خافت أن يرفض أي شيء يدعوه إلى الكتابة، سارعت تقول: «هذه غرفة جميلة جداً، يا سيادة الدوق. ثم إن لديك مجموعة رائعة من الرسوم.»

فقال: «نعم، ولكنها كما ترين، بحاجة إلى تنظيف وكذلك بقية الرسوم في متحف الرسوم في القصر.»

فقالت تخاطب سيمون: «هذا هو المكان الذي أحب كثيراً التفرج عليه يا سيمون.»

فقد كانت شعرت بأن الصبي ينبغي أن لا يترك بعيداً عن الحديث، وأجاب: «لقد كنت قلت إنك تريدين التفرج أولاً على أنحاء الحديقة.»

فقالت: «نعم، أعلم ذلك. ولكن هناك الكثير للفرجة، وهي تسرني جداً جداً.»

وعاد الدوق فتحدث قليلاً عن الرسوم.

وسرّت كاسيا وهي ترى دهشته لمعرفتها البالغة بمختلف الفنانين. فقد كانت تراه ينظر إليها متأملاً وكأنه غير واثق من صدقها.

وحالما أنهى سيمون تناول الشاي، ولم يكن قد تحدث كثيراً أثناء الطعام، وقفت عند ذلك كاسيا وهي تقول: «أظن يا سيادة الدوق أن علينا، أنا وسيمون، أن نتركك الآن، لأنني واثقة من أن لديك الكثير من المشاغل. وحيث أنني وصلت لتوّي، علي أن أتعرف إلى مسالك القصر، وأتعلم كيف تجري الأمور هنا.»

فقال الدوق بلهجة فيها لمحة من التهكم: «إنني واثق، يا آنسة واتسون، من أنك قريباً، ستجدين كل شيء قد تقرر حسب ذوقك.»

ورأت كاسيا أن سيمون قد سبق ومشى نحو الباب. وعندما أوشكت أن تلحق به، قال الدوق: «أحب أن أتحدث إليك، يا آنسة، واتسون، عن تعليم ابن أخي.»

وسكت لحظة يتساءل عما إذا كان من الممكن أن يطلب إليها تناول العشاء معه، ولكنه رأى أن ذلك سيثير استغراب الخدم.

وعاد بذكرياته إلى حين كان في سن سيمون وأصغر.

تذكر أن مربيته أو معلمته التي كانت تعلمه، كانت تشاركهم الغداء، ولكنها كانت دوماً تتناول عشاءها في قسم المستخدمين.

وكان هذا عرفاً سائداً، ولكنه واثق من أنه ما زال متبعاً.

لقد رأى أن الآنسة واتسون هي مربية غير عادية ومن الواضح تماماً أنها (سيدة راقية). ولهذا لم يكن من اللائق

بالنسبة إليها، الخوض في سيرتها بين المتخدمين.

وقال بشيء من الاستعلاء: «أظن أن أنسب وقت هو بعد العشاء. وحيث أنني سأتناول العشاء وحدي فسأكون في انتظارك حوالي الساعة التاسعة إلا ربعاً. إما هنا أو في المكتبة.»

فقالت بخضوع: «نعم، طبعاً يا سيادة الدوق.»

واستدارت ثم لحقت بسيمون وهي تشعر بالدوق خلفها يراقبها متأملاً.

ركض سيمون صاعداً الدرج، ولحقت هي به. وعندما وصلا إلى غرفة التدريس، قال لها: «لقد كان تصرفي حسناً، يا آنسة والتسون. إنني لم اقترف أيّ خطأ.»

فقالت: «بل كان حسناً جداً جداً. وكان ذلك موقفاً تمثيلياً رائعاً.»

فسألها: «لماذا تظنين أن عمي دارسي يريد أن يراك بعد العشاء؟»

فجلست كاسيا على كرسي وهي تقول: «إني واثقة من أنه سيعطيني قائمة طويلة بكل الأشياء التي يريدني أن أعلمك إياها. التاريخ، الجغرافيا، الحساب وكثير غيرها.»

فصرخ سيمون: «أبداً. لن أتعلم كل ذلك. لا أريد أن أتعلم.»

فقالت: «إني أغيظك فقط، فلا تقلق، فمهما قال عمك، سأوافقه، ثم أتظاهر بأنني أقوم بما يريده مني.»

فقال: «إنها فكرة رائعة. فقد كنت خائفاً من أنك ربما تخافين منه فتضطرين إلى أن تقومي بما يطلبه منك.»

فأجابت: «إنني لست من جنوده بحيث أكون مضطرة إلى

إطاعته. وفي الواقع إنك أنت، أنت وحدك، من يعلم انني هاربة أختبىء في هذا القصر لكيلا يعثر علي أحد.»

فسألها: «ألا تظنين أن عمي دارسي قد يرتاب في كونك لست مربية كما تدعين؟»

ففكرت كاسيا في أن هذا محتمل جداً في الحقيقة، ولكن من الخطأ أن تدع سيمون يظن ذلك، فقالت: «يجب أن تكون حذرين جداً وتتصرف بمهارة، وذلك لكي يعتقد أنني مربية حقاً وأنك تتعلم مني أشياء كثيرة من التي يعتقد أنها هامة جداً.»

فقال: «ربما سيغضب كثيراً إذا هو علم بأننا نخدعه.»

فقالت: «إذن، يجب أن نحاذر من أن يكتشف ذلك. وإذا كان الناس الذين أنا هاربة منهم، يفتشون عني، يجب ألا يعلموا أن المربية في القصر هي الفتاة التي يبحثون عنها.»

فقال: «يجب أن نخدعهم هم أيضاً.»

وكان في صوته نبرة سرور.

وأدركت أنه يجد كل هذا التظاهر والتمثيل شيئاً بهيجاً بشكل غير متوقع.

فقالت: «إن تصرفاتك حتى الآن هي في منتهى المهارة، وأنا واثقة من أن عمك لم يكن يتوقع منك أن تتصرف بهذا الشكل اللائق أثناء تناول الشاي. أو أن تكون بهذا التهذيب. وهذا ما يجب أن تكون عليه مع كل إنسان.»

فقال: «وهذا يجعلهم يظنون أنك مربية جيدة جداً.»

فأجابت: «إنهم طبعاً سيظنون ذلك.»

وسارت إلى الطاولة حيث وجدت عليها عدداً من الأقلام وبعض الأوراق بجانب دفتر.

قالت: «يجب ألا تنسى أن علينا أن نضع القائمتين لأجل عمك.»

وظنت أن سيمون سيرفض ذلك، فقالت بسرعة: «لا أدري ما هي الجائزة التي سيمنحنا إياها. إذا هو سألك، ماذا تريد أن تطلب منه؟»

ففكر سيمون لحظة، ثم قال: «إنني أريد بعض النقود.»

فسألته بدهشة: «نقود؟ ولماذا النقود؟»

«لأنهم لا يعطونني نقوداً مطلقاً.»

فسألته: «هل تعني أنك لا تحصل على مصروف أبداً؟»

فهز رأسه نفياً، ثم قال: «عندما كنت ساكناً مع احدى عماتي، كانت تعطيني بعض النقود، ولكنها غضبت لأنني حاولت أن أخرج إلى الدكان لأبتاع بعض الحلوى.»

فسألته: «أتعني أنك حاولت الخروج وحدك؟»

فقال: «كانوا عجائز وقالوا إنهم متعبين لا يستطيعون السير إلى القرية.»

«وأنت لم تحصل بعد ذلك على نقود أبداً؟»

فقال بلهجة منطقية: «وما فائدة النقود إذا لم يكن ثمة مكان أنفقها فيه؟»

فقالت: «حسناً، سواء حصلت على الجائزة أم لم تحصل عليها، فأنا سأطلب أن يمنحوك نقوداً كل أسبوع، ثم نذهب أنا وأنت إلى السوق فتشتري ما تريد. وأنا كذلك نسيت أن أحضر معي كثيراً من الأشياء.»

فقال: «هذا شيء حسن. إن هذا يسرني جداً.»

فقالت: «إذن، هذا ما سنقوم به، حتى اننا قد نشتري هدية لعمك. وهذا سيدهشه.»

فقال: «إنني أريد شراء بعض الحلوى.»

فقالت: «إنك طبعاً تريد ذلك. وأنا أيضاً اعتدت شراء الحلوى بنقودي، ولكنني أيضاً كنت أوفر نقودي لأشتري هدايا لأمي وأبي في الأعياد. وكان هذا يسرهما جداً.»

وسادت فترة صمت قال سيمون بعدها: «عندما أحصل على نقود سأشتري لك هدية.»

فشبكت كاسيا يديها وهي تهتف: «آه يا سيمون. ما أجمل هذا منك. لشد ما أحب أن أحصل على هدية، ولكنها يجب أن تكون مفاجأة. ولهذا يجب عليك ألا تخبرني ما هي قبل أن تقدمها لي.»

فبدا السرور على سيمون، وبعد لحظة، عادت تقول: «لا تنسى أننا سنفوز بجائزة من عمك، وتلك أيضاً ستكون مفاجأة.»

فقال وكأنه تذكر فجأة: «ولكنني لا أريد أن أكتب، وقد سبق وقلت إنني لا أريد أن أكتب.»

فقالت: «هذا ما كنت قلته لمعلمك السابق السيد جاكسون الذي يبدو أنه رجل أحمق. ولكننا، أنا وأنت، سنكتب أشياء ستساعد عمك وتجعل القصر يبدو أكثر بهجة مما هو الآن.»

ووضعت أصابعها على وجهها وهي تتابع قائلة: «لقد كنت الآن أفكر في أنك ولد محظوظ إذ تعيش في مثل هذا القصر المثير، البهيج.»

وسكتت لحظة عادت بعدها تقول: «سأخبرك غداً بقصة قصر بكبر هذا القصر تقريباً حيث حاربوا منه قرصان الشمال عندما جاءت سفنهم الكبيرة من بحر الشمال لكي تسلب وتسرق البقر والغنم والنساء.»

فسألها: «ماذا حدث عند ذاك؟»

أجابت: «لقد كان الناس في القصر في غاية الشجاعة فحاربوا ببسالة إلى أن هرب القراصنة دون أن يظفروا بما كانوا يريدون سلبه.»

ورأت أن سيمون كان يستمع إليها، فتابعت تقول: «هذا ما عليك أن تفعله هنا، فتجعل قصرك من القوة بحيث يجعلكم تطردون كل من يأتي لمهاجمتكم.»

فسألها: «وهل أستطيع أن أحصل على بندقية؟»

أجابت: «طبعاً إذا كنت تحارب ستكون لك بندقية ولكن عليك أن تتعلم كيف تستعملها أولاً.»

فأخذ سيمون يفكر في هذا، وبعد لحظة عادت كاسيا تقول: «لقد فهمت ما عناه عمك بقوله إن هناك الكثير من العمل. هناك القرميد المحطم في واجهة القصر، وأظن أن السبب الذي يجعلهم يرفضون السماح لك بالصعود إلى السطح هو أن لا تذهب إلى السطح الذي يحتاج إلى إصلاح.»

ويبدو أن سيمون لم يكن قد فكر في ذلك فقال الآن: «هل ندون هذا في القائمة؟»

فقالت: «أظن أن هذا ما ينبغي علينا فعله. وغداً سنفتش في كل مكان نذهب إليه عن الأشياء التي هي بحاجة إلى اصلاح.»

قال: «أريد أن أبدأ الآن.»

فقالت: «حسناً جداً، أحضر ورقة وقلما وسنبدأ من هذا الممر وكل النوافذ التي فيه. ثم نأخذ في العمل تدريجياً يوماً بعد يوم إلى واجهة القصر.»

ونظرت إلى ساعة الحائط، ثم قالت: «إذا أمكننا أن نشتغل الآن نصف ساعة، فهذا يسمح لي بوقت يمكنني فيه أن

أحدثك قبل أن تأوي إلى فراشك بقصة مثيرة جداً عن غزو وليام أوف نورماندي لانكلترا.»

فقال: «إن هذا سيسرّني جداً.»

وكان أثناء كلامه هذا قد التقط عن المنضدة قلماً وقطعة ورق.

فقالت: «أظنه سيكون أسهل عليك إذا أنت دوّنت ذلك على الدفتر. وسنضع حرف س أمام الشيء الذي تجده أنت وحرف ك أمام الشيء الذي أجده أنا.»

فسألها: «حرف ك؟»

فأجابت: «إنه أول حرف من اسمي والذي هو كاسيا.»

كانت تتكلم دون تفكير، وسرعان ما رفعت يدها إلى فمها، وهي تهتف: «آه، لقد نسيت. وهذا سرّ آخر.»

فسألها: «وما هو؟»

«اسمي. لقد كنت أخبرت السيد بينيت أن اسمي هو كيت ولكنه في الحقيقة كاسيا.»

فقال: «أنا أحب هذا الاسم. إنه أجمل من اسم كيت.»

«وهذا هو رأيي أنا أيضاً، ولكن عليك أن لا تخبر أحداً. وأنا أخبرتك بهذا غلطة مني فقط.»

فقال: «أنا لن أخبر أحداً. وسأضع يدي على صدري.»

الفصل الخامس

بعد العشاء، نزلت كاسيا إلى الطابق الأسفل، وكانت ترتدي اجمل ثوب مسائي عندها.

وكانت تعلم أنه من الأناقة والزينة بحيث لا يناسب مربية.

وعندما دخلت غرفة الجلوس، كان الدوق يقف أمام المدفأة في انتظارها كما يبدو.

واخذ ينظر إليها وهي تقترب منه.

قال لها: «مساء الخير يا آنسة واتسون، هذا إذا كان هو اسمك الحقيقي، هل لك في الجلوس؟»

نظرت إليه، ولكنها لم تتكلم، بينما تابع هو: «والآن، من الأفضل ان نواجه الواقع، لماذا انت هنا؟ هل تقصدين الابتزاز، ام الأمر مجرد رغبة عابثة للتعرف عليّ؟»

عند ذلك قالت ببطء: «لا أدري لماذا تفترض ان الأمر لا يخرج عن هذين السببين.»

أجاب: «لكي تصدقي انني على شيء من الذكاء، لماذا تسعى فتاة رائعة الجمال مثلك، وترتدي مثل هذه الثياب الغالية الثمن، إلى ان تعمل مربية لصبي خارج عن سيطرة أي انسان، إلا إذا كان السبب هو انه ابن أخي؟»

وأدركت كاسيا أنه رغم لهجته الرقيقة السارة، إنما كان يهينها، فقالت: «إذا كنت تظن، ياسيادة الدوق، انني لم احضر إلى القصر إلا للتعرف اليك، فأنت مخطىء جداً.» وسكتت لحظة، ثم عادت تقول: «عندما استجبت للاعلان الذي كان سكرتيرك قد

نشره في صحيفة المورننغ بوست لم تكن لدي فكرة عن أية صلة بينك وبين الصبي الذي هو بحاجة إلى مربية.»

فقال: «في هذه الحالة، أنا اعتذر لظني هذا بك، ولكن يبقى الظن الآخر.»

قالت ببساطة: «يمكنك ان تطمئن، ياسيادة الدوق، إلى ان ليس في نيتي ابتزاز احد.»

«إذن، فسنعود إلى سؤالنا الأساسي والذي هو لماذا انت هنا؟»

«اظن ان جوابي، دون ان اقصد به عدم التهذيب هو أن هذا شأني الخاص.»

فرد عليها بحدة: «وهو شأني أنا كذلك حيث انك موظفة عندي وتعتنين بابن اخي.»

وعندما لم تجب، قال: «انك جئت من لندن، بعد ان قابلت السيد اشتون هناك. ولا بد انه اخذ منك اسماء كفلاء لك.»

وكانت كاسيا تدرك ان هذه نقطة ضعف في قضيتها فقالت بعد لحظة: «لقد ادليت إليه باسم كفيل، ولكن ذلك كان يستغرق منه وقتاً للوصول إليه، بينما كنت انا متلهفة إلى الحصول على هذا العمل في الحال.»

فسألها: «لماذا؟»

«كان عليّ ان اترك المكان الذي اعيش فيه.»

فسألها: «اتراهم طردوك ام انك تركتهم بكامل رغبتك؟»

أجابت: «بل بكامل رغبتي.»

ساد الصمت برهة، ثم قال: «يبدو انني مازلت لم افهم الموضوع.»

فسألته: «ولماذا تريد ان تفهم؟ ان بإمكانك ان ترى بعينيك ان سيمون قد تقبل وجودي، ويمكنني أن اقول،

ياسيادة الدوق، انه كان قد اسيئت معاملته جداً ومازال أمره مهملاً إلى حد لا يصدق.»

فهتف: «أمره مهمل؟» كانت دهشته لما سمع صادقة تماماً.

فقالت: «إنني طبعاً لم اصل إلا منذ فترة قصيرة، ولكنني فهمت مما سمعته أنه كان يساق من مكان إلى آخر. دون ان يحظى بحب أو مجرد اعتباره انساناً حياً يتنفس، وذلك من أي ممن كان في رعايتهم.»

فحملق الدوق فيها، وقال: «انك تروعينني يا آنسة واتسون. فأنا لا اصدق ان هذا كان يحدث هنا.»

أجابت: «بل كان يحدث. والأسى يتملكني لأجل سيمون بشكل لا استطيع التعبير عنه بالألفاظ.»

وظنت أن الدوق لا يصدقها، فقالت: «اتعلم ان كل ما كان يطلبه كانوا يمنعونه عنه؟ لم يكن مسموحاً له بركوب الخيل إلا إذا كان على بوني صغير يقوده سائس، اما الطعام الذي يقدمونه إليه فهو مفزع تماماً.»

فسألها: «ماذا تعنين بذلك؟»

أجابت: «لقد اكتشفت هذا المساء انهم كانوا يعطونه للعشاء خبزاً وحليباً فقط، وقدر ملعقة من الحلوى، ولو لم تطلب له عصير الليمون لكانوا اعطوه ماءً فقط.»

فقال: «لا استطيع تصديق ذلك، لا بد أنه كان بإمكانه ان يطلب ما يريد.»

«انني واثقة من انهم ماكانوا ليلبوا طلبه، عند ذاك، حيث انهم كانوا يمنعون عنه كل ما يريد، وهو على كل حال قد استمتع بالإشتراك معي في عشائي.»

فجلس الدوق على كرسي، ثم قال: «هل انت مستعدة حقاً، باهتمامك الواضح هذا به، للبقاء هنا في القصر وتحويل سيمون من الغول الذي كانه، حسب ما اخبروني، وذلك إلى بشر عاقل؟»

فقالت: «انه كذلك معي.»

نظر إليها الدوق لحظة، ثم قال: «إذن، فليس لي إلا ان اعتذر لما كنت قلته لك، واطلب منك متابعة رعايتك لابن اخي وتحويله، كما قلت لك الآن، إلى بشر عاقل يمكنه ان يذهب، كما أرجو، إلى كلية ايتون فيما بعد.»

فلم تجب، وبعد لحظة عاد يقول: «يجب ان تعلمي انني ممتلىء فضولاً، فعدم معرفتي بسبب وجودك هنا يملأني بالإحباط، كذلك كونك مختلفة عن كل امرأة عرفتها من قبل.»

فابتسمت كاسيا: «ارجو ان يكون هذا صحيحاً، ياسيادة الدوق، وإذا كنت تثق بما سأقوم به بالنسبة إلى سيمون، فأنا واثقة من انه سيصبح قريباً فتى مختلفاً تماماً عما كان عليه في الماضي.»

فقال: «انني لا استطيع تصديق كل هذا، فمنظرك لا ينبىء عن مخبرك، حيث انك صغيرة السن بينما لديك كل هذا الذكاء والحكمة.»

فضحكت كاسيا قائلة: «هذا اجمل اطراء سمعته في حياتي، شكراً.»

فقال: «وهذا شيء آخر لا يمكنني تصديقه. فإذا كنت تعيشين في لندن، فلا بد ان الإطراء يطوقك من كل جانب.»

فلم تجب بشيء. ونظر إليها لحظة طويلة قبل ان يتابع قائلاً: «من أين لك بهذا الثوب؟»

وحيث انها لم تكن تتوقع هذا السؤال، فقد اجابت بعد لحظة تردد: «انه... هدية من... صديقة.»

فقال: «وهذا لا اصدقه تماماً.»

ولم تنتبه للهجة التهكم في صوته، وبعد لحظة، قالت: «انني اعلم انك في وضع، ياسيادة الدوق، يعطيك الحق في إلقاء الأسئلة عليّ، ولو امكنني لأجبتك عليها، ولكنني التمس منك ان تسمح لي بالاحتفاظ باسراري مادمت أرى ذلك ضرورياً.»

فقال لها: «ها انت ذي تعترفين بان لديك اسراراً، والآن، حيث انك قلت هذا، اظنك مختبئة من شيء أو أحد ما.»

ورأته اكثر مهارة مما كانت تتوقع، فرفعت يديها قائلة بضراعة: «ارجوك... ارجوك، كل شيء حالياً يسير على مايرام... فلا... تفسد الأمور.»

فقال مستسلماً: «حسناً جداً، يا آنسة واتسون، انك الفائزة. وليس امامنا سوى الانتظار ورؤية ما سيحدث.»

فابتسمت له قائلة: «اشكرك، والآن، بدلاً من ان يكون الحديث عني، وهو ماأراه مملاً تماماً، هل يمكننا من فضلك، ان نتحدث عنك؟ فهناك الكثير الذي أريد أن اعرفه.»

• • •

وفيما كان الدوق يسترجع في ذاكرته حديثهما ذاك، ايقن بأنه مختلف جداً عن أي حديث اعتاد ان يتبادله مع امرأة.

كانت كاسيا قد قالت انها تريد ان تتحدث عنه، ولكن ليس عنه بصفته رجلاً.

كان الحديث عن المعارك التي خاضها، الوضع في فرنسا بالنسبة إلى جيش الاحتلال الانكليزي هناك، وما رأيه في السلام حالياً.

جلعه هذا يشعر وكأنه يتحدث مع أحد رفاقه.

وعندما تذكر ما كان قيل، انتبه إلى ان الاسئلة التي كانت كاسيا توجهها إليه كانت ذكية للغاية.

استيقظت كاسيا مبكرة جداً.

وبعد ان ارتدت ملابس الركوب، دخلت من خلال غرفة التدريس إلى غرفة نوم سيمون، فايقظته، وبعد ذلك بعشر دقائق، كانا يتسللان من الباب الخلفي نحو الاسطبل.

وكان الوقت مبكراً بحيث لم يكن هناك سوى اثنين من السائسين المناوبين في الليل. ودون أي تعليق، جهزا الجوادين اللذين اختارتهما كاسيا.

امتطى سيمون أولاً ظهر المهر برينسيس ورأت كاسيا مقدار البهجة والإثارة التي تملكته للسماح له بركوب جواد.

وتاقت نفسها إلى ركوب احد الجياد التي وصلت حديثاً.

فقد كانت تلك الجياد نشيطة مليئة بالحيوية.

ولكنها رأت ان ذلك قد يضايق برينسيس مهر سيمون، فاختارت بدلاً من ذلك، جواداً حسناً فكرت في أنه لا بد كان موجوداً قبل ان يتقلد الدوق لقبه.

وحيث انها لم تشأ ان يراهما احد من القصر، خرجا من فناء الاسطبل من المدخل الخلفي، ومن هناك وجدا نفسيهما في مرعى للخيل، حسبما كانت ترجو، جعلت الجواد يعدو بها خبباً فوق الأرض الطرية، وهي تشجع سيمون على الاسراع.

وتملكها الارتياح وهي تراه يجيد التصرف مع المهر تلقائياً.

وكانت واثقة من أن الدوق هو فارس ممتاز. وكذلك أخوه، والد سيمون، لا بد أنه كان كذلك هو أيضاً.

وعندما أتما دورة حول المرعى، شعرت بالرضى وهي ترى سيمون قد اصبح من الثقة في نفسه بحيث اتجه مبتعداً نحو الحقول، وتبعته حيث وصلا إلى جدول يجري خلالها.

وعندما ابتعدا تماماً عن القصر، قال سيمون: «ان بامكاني الركوب، هل ترين يا آنسة واتسون؟ بإمكاني الركوب، لم يعد بإمكان احد، بعد الآن، ان يمنعني من ركوب حصان كبير مثل برنسيس.»

فقالت: «كلا طبعاً، وانا واثقة من ان عمك سيسره هذا.»

ولم يدهشها وهما يستديران راجعين إلى البيت، ان ترى الدوق من بعيد قادماً باتجاههما.

فقد كانت واثقة من انه سيتنزه على ظهر جواده قبل الافطار، تماماً كما كان يفعل أبوها حين يكون في الريف.

ومن الممكن ان يكونوا اخبروه في الاسطبل انها، وسيمون، قد سبق وخرجا.

فقالت: «ذلك عمك، يا سيمون، والآن إذهب إليه ليمكنه أن يرى مهارتك في الركوب.»

فانطلق سيمون، بينما تعمدت هي التخلف عنه، فقد كانت هذه، لحظة يجب على الدوق ان يفكر فيها في ابن اخيه فقط ويشعر بالسرور معه.

ولم تكن مخطئة، إذ أنها، عندما توجهت نحوهما بعد عدة دقائق، سمعت الدوق يقول: «هذا حسن جداً يا سيمون. ولو كان أبوك موجوداً هنا، لكان فخره بك كبيراً.»

«لقد قالت الآنسة واتسون انني اكبر من أن اركب بوني صغيراً يقودونه بي.»

فأجاب الدوق: «ومعها الحق طبعاً.»

ونظر إلى كاسيا وهو يقول هذا، غامزاً بعينه، ثم تابع: «لقد تعلمت ذلك الدرس، ولن اقترف نفس الغلطة مرة أخرى.»

فضحكت قائلة: «انها ليست غلطتك تماماً، فهناك كثير من الأغبياء في العالم.»

فقال الدوق: «إذا كنت تعتبرينني منهم، فهذا سيزعجني تماماً.»

فأجابت: «لا اظن ان هناك من يمكن ان يقول انك كنت غبياً، ولكن ربما كنت جاهلاً قليلاً بأمور الصبية الصغار.»

فقال: «ولكنني كنت صبياً صغيراً مرة.»

فردت قائلة: «ولا بد انك كنت صبياً مغامراً تقع دوماً في المشاكل.»

فضحك الدوق وهو يحدث نفسه بأن اغرب شيء في هذه المربية الصغيرة هو عدم شعورها بالرهبة منه، فقد كانت تتصرف وكأنها مساوية له، واخذ يراقب طريقة ركوبها الخيل إلى ان اقتنع بأنها معتادة على امتطاء الجياد الغالية الثمن الحسنة النشأة.

وتساءل للمرة الألف، عما جاء بها إلى هنا.

ولم يريا الدوق بعد ذلك اثناء الصباح، وقد اخبروا كاسيا انها، وسيمون، سيتناولان الغداء في غرفة الطعام.

وكانت تعلم أن هذا ما ينبغي ان يكون، ولكن سيمون قال انه يفضل ان يتناول معها الغداء وحدهما، ولكنها جعلته يمشط شعره ويغسل يديه قبل ان يذهبا إلى الدوق.

قالت تحذره وهما ينزلان السلم: «انتبه إلى ما ستقوله عما فعلناه هذا الصباح، فقد كان يتوجب علينا ان نأخذ دروساً.»

وفكرت باسمة في انهما كانا يقومان بذلك فعلاً. ولكنه قطعاً لم يكن يتبع أياً من المناهج الدراسية.

لقد كانا، هي وسيمون، قد ذهبا للتفرج على معرض الرسوم في القصر، فكتبا ملاحظات عن العدد الكبير من الرسوم التي كانت بحاجة إلى تنظيف، وبعضها قد تحطم فيها الإطار.

وكانت اثناء ذلك، تحدث سيمون بقصص شيقة عن بعض الرسامين.

وكذلك ذهبا إلى المكتبة حيث هتفت كاسيا بسرور وهي ترى العدد الكبير من الكتب فيها.

فقال سيمون بغضب: «إني أكره الكتب ولا اريد أن اقرأ شيئاً.»

فقالت كاسيا: «انني لا اريدك ان تقرأ شيئاً، ولكن هل تتذكر تلك القصة التي اخبرتك بها الليلة الماضية عن وليام الفاتح؟ لقد ظننت انه ربما يسرك ان تحاول العثور على صورة له، فقد كان على كل حال، أول ملك لانكلترا.»

ورأت لمحة من الاهتمام في ملامح سيمون، فقالت: «انني سأتسابق معك لنرى من يعثر على صورة له أولاً، والجائزة هي أربعة بنسات.»

فاستجاب سيمون لهذا.

وبشيء من دفع الكتب إلى الناحية المناسبة، جعلته يعثر بنفسه على صورة الملك ويليام هذا. وكان سروره كبيراً وهو يسألها: «ألم اكن ماهراً في هذا الأمر يا آنسة واتسون؟»

فقالت موافقة: «كنت ماهراً تماماً، وهذه هي النقود. ان

بإمكانك ان تنفقها مع نقودك عندما نذهب إلى التسوق بعد الظهر.»

وكانت قد قابلت السيد بينيت بعد الإفطار مباشرة، حيث جعلته يوافق على منح سيمون شلناً واحداً اسبوعياً.

عند ذلك طلبت منه ان يسمح لهما بعربة يجرها بوني صغير كان قد ادهشها وجودها في الاسطبل.

فقال: «ولكن بامكانكما ان تأخذا عربة عادية إذا شئت يا آنسة واتسون.»

فأجابت: «كلا، شكراً، اني افضل اخذ عربة بوني صغيرة، فأنا واثقة من ان سيمون سيرغب في ان يقودها بنفسه عند العودة.»

فنظر السيد بينيت إليها، وابتسم قائلاً: «لقد وصل المستخدمون في القصر إلى قرار هو انك ماهرة، لأنهم لم يروا قط من قبل سيمون يتصرف بهذا الشكل الحسن.»

وابتهج سيمون بنقوده هذه التي يستطيع ان يشتري بها ما يريده من حلوى.

وعندما فعل ذلك، تعمدت هي ان تشتري بعض الأشياء لنفسها، ثم طلبت من سيمون ان يدون اسماءها في دفتر صغير كان معها في حقيبتها. اشترت عدة قطع من الصابون وفرشاة اسنان، وبعض مشابك الشعر وعدة ياردات من شرائط جميلة للشعر وردية اللون.

وبعد ان لفها البائع جميعاً لها قالت لسيمون: «ارجوك يا سيمون، هل لك ان تجمع الثمن لأجلي؟» ونظرت إليه محذرة كيلا يرفض امام البائع، فقد كانت واثقة من ان كل شخص في القرية قد سمع عن سلوك سيمون السيء مع المعلمين.

ولكن سيمون كان من الدهاء بحيث ادرك ان عليه على الأقل ان يتظاهر بأنه يجمع الأرقام التي سبق ودونها.

ولكنه في الواقع، قد قام بذلك بطريقة صحيحة.

فشكرته كاسيا، وعندما حملت لفائفها قالت: «هل لك بأن تفتح حقيبتي من فضلك، يا سيمون؟ انك ستجد بعض النقود في الكيس.»

وبكل حرص دفع سيمون للبائع نقوده على أكمل وجه.

وعندما خرجا عائدين إلى العربة الصغيرة، قالت كاسيا: «لقد كنت ماهراً تماماً في ما قمت به، والآن سيسري في جميع انحاء القرية الخبر في انك تعرف الحساب.»

فقال: «لقد رأيت أن هذا ما تريدينه مني ان افعل.»

«لقد كنت لامع الذكاء. والآن، لدي مفاجأة لك.»

فسألها: «مفاجأة؟»

فقالت: «لقد علمت من السيد بينيت انه منذ شهر واحد فقط، اعطوا حاضنتك كوخاً في آخر القرية.»

فهتف: «حاضنتي؟»

«ظننت انك ربما تحب ان تزورها لتراها.»

أجاب: «طبعاً أحب ان أرى حاضنتي.»

وكان السيد بينيت قد اجاب كاسيا حين سألته عنها: «من الغريب هذا السؤال منك، يا آنسة واتسون، فقد كانت تلك المرأة العجوز قد كتبت إليّ منذ ثلاثة اسابيع فقط عن ضائقتها ويأسها، وقد انتابني الذعر عندما علمت انها لم تنل أي تعويض بعد ان طردها احد اقارب سيمون.»

فسألته: «دون تعويض؟»

أجاب السيد بينيت بصوت معتذر: «لابد ان هذا قد حدث

سهواً، ولكنها قد انفقت كل ما كانت اقتصدته فخافت من ان تضطر إلى الذهاب إلى الملجأ.»

سألته: «وكيف يمكن ان يحدث مثل هذا الشيء لحاضنة، من بين كل الناس؟»

فقال: «لم اخبر سيادة الدوق بالأمر لأنني كنت اعلم ما كان سيقوله. وكان لدينا كوخ فارغ في آخر القرية فانتقلت الحاضنة إليه.»

سألته: «ألم تخبر سيمون عنها؟»

قبدا الضيق على السيد بينيت: «لقد كنت آمل ان يستقر به الأمر مع معلمه. فخفت ان تتدخل حاضنته بسير دروسه بشكل ما.»

ولم تقل كاسيا شيئاً، وهي تفكر في ان السيد بينيت كان يتصرف بالنسبة إلى سيمون بنفس غباء الآخرين.

لقد كان كل ما يحتاجه سيمون هو الحب والحنان، فقد كان هو الشيء الذي خلت حياته منه وذلك منذ وفاة أمه.

وبعد ذلك سلبوه حاضنته حين كان في اشد الحاجة إليها.

وسارت بهما العربة إلى آخر القرية حيث علمت كاسيا ان الكوخ كان هناك. وشعرت بأن سيمون يكبح جهده اظهار ما يشعر به من إثارة لقرب لقائه لحاضنته مرة أخرى.

ولم تستطع إلا ان تتمنى بان لا تكون قد اقترفت خطأ ما في سعيها هذا.

وكان الكوخ المسمى بكوخ الزهور جميلاً ومغطى بالقش ولكنه، ككثير غيره من اكواخ القرية، كان بحاجة إلى دهان. كما كان عدد من زجاج النوافذ مهشماً.

وما ان اوقفت كاسيا العربة، حتى قفز سيمون منها وهو يسألها: «هل أقرع الباب وأرى ان كانت في الداخل؟»

فأجابت: «نعم بالطبع، وسأرى ان كنت اجد شخصاً يمسك بالبوني.»

ولكن البوني كان هرماً ومن غير المحتمل ان يجول في الأنحاء. ورأت صبياً يلعب في حديقة في الناحية الأخرى من الطريق، فناداته، وعندما جاء إليها، قالت له: «سامنحك نصف شلن إذا انت امسكت بهذا البوني اثناء وجودي في داخل الكوخ.»

فقال بلهفة: «إنني لن ادعه يذهب بعيداً.»

وفي اللحظة التي وصلت فيها إلى باب الكوخ، كان الباب قد فتح ودخل سيمون.

ورأت كاسيا امرأة مسنة بيضاء الشعر تضمه بين ذراعيها. ثم أخذ يتكلم بسرعة فائقة بينما جلست هي على كرسي تنظر إليه.

وكان هو يقول: «انهم اناس كريهون أوغاد انهم لا يسمحون لي بأن افعل أي شيء أريده. وعندما هربت أبحث عنك، قالوا انهم سيضربونني اذا انا فعلت ذلك مرة أخرى.»

قالت المرأة: «هذا خطأ شنيع منهم، كنت اعلم انك ستفتقدني.»

فقال: «لقد بكيت وبكيت، ولكنهم لم يقبلوا بأن تعودي.»

فقالت كاسيا من عند الباب: «اظن بإمكانك ان تعودي الآن.»

نظرت الحاضنة إليها بدهشة، فقال سيمون: «انها

مربيتي الجديدة. انها طيبة جداً، وهي تحكي لي حكايات كما اعتدت انت معي.»

تقدمت كاسيا نحوهما، وعندما حاولت الحاضنة الوقوف لها، منعتها من ذلك وهي تقول: «لقد اكتشفت لتوي مبلغ حاجة سيمون اليك، وإذا سمحت لي فسأسأل الدوق ان كان بالامكان ان تأتي وتعيشي في القصر.»

أجابت: «لقد سبق وقالوا ان سيمون اصبح كبيراً لايحتاج حاضنة.»

فقالت كاسيا ببساطة: «ولكنه اصغر من ان يكون دون أم.» فأدركت المرأة ما تعنيه.

وعندما نزلا ظهراً إلى تناول طعام الغداء، تركت سيمون يخبر عمه الدوق كيف حاول ان يبحث عن حاضنته بعد ان طردوها وكيف عاد فعثر عليها الآن، استمع اليه الدوق، وبعد ذلك قال مخاطباً كاسيا: «اظن ان هذا من عملك انت.»

فقالت كاسيا ببساطة: «ان الحاضنة جاهزة للقدوم والسكن في القصر إذا انت سمحت بذلك.»

لوى شفتيه لحظة، ثم قال: «لا يمكنني ان اقول لا.»

فسألته: «ولماذا تقول لا؟ إني اعتقد انها في غاية الاهمية بالنسبة إلى سيمون.»

فقال سيمون: «انا اريد حاضنتي... أريدها كثيراً. كما انني اريد أيضاً ان تبقى معي الآنسة واتسون.»

فقالت كاسيا: «وهذا ما سأفعله طبعاً.»

قال الدوق: «حسناً جداً، سأرسل عربة لاحضار الحاضنة عصر هذا اليوم.»

ابتسمت له كاسيا قائلة: «كنت أرجو ان تقول ذلك.»

أجاب الدوق: «ان لدي شعوراً بان لا خيار لي في الأمر.»

وحيث ان سيمون كان بالغ السرور لقرب مجيء حاضنته، أخذ يتدفق بالحديث طوال فترة الغداء، واخذت كاسيا تفكر فيما بعد كيف جعلا، هي وسيمون، الدوق ضاحكاً طوال الوقت.

فقد كانت تحدث نفسها قائلة انه لا بد ان الضجر يمتلكه، شاعراً بالشوق إلى لندن.

ولكن، على كل حال، لم تظهر منه أية دلالة على ذلك.

ومرة أخرى قال انه يريدهما ان يتناولا الشاي معه، وان يكن الوقت متأخراً قليلاً عما كان عليه أمس.

قال: «انني ذاهب إلى المزارع، لقد ذهبت إلى اثنتين منهما هذا الصباح وهناك اثنتان في انتظاري بعد ظهر اليوم.»

فقال سيمون: «اني احب ان اري الخراف الصغار.»

أجاب الدوق: «حسناً جداً، يجب عليكما، انت والآنسة واتسون، ان ترافقاني إذن، وبإمكانك ان تتفرج على الخراف والدجاج والعجول بينما اتحدث انا إلى المزارعين.»

فقال سيمون: «هذا شيء جديد علي.»

أجاب الدوق: «انني أرجو فقط ان لا اقطع عليك، بذلك، دروسك.»

وادركت كاسيا انه كان يغيظها، فاجابت: «كلا، أبداً يا سيادة الدوق، يجب ان يتعلم سيمون عن أمور الريف والتي تحدق به جميعاً، تماماً كتلك المواضيع التي لا توجد إلا في الكتب.»

وقال سيمون مزهواً: «لقد وجدت صورة الملك ويليام بنفسي هذا النهار، وقد اعطتني الآنسة واتسون، جائزة مقدارها أربعة بنسات.»

فقال الدوق لها بصوت منخفض: «وهذا طبعاً رشوة وإفساد.»

فأجابت بحدة: «على العكس. ان ذلك أشبه باكليل الغار في الالعاب الاولمبية.» فضحك الدوق من تفسيرها.

• • •

خرجوا في عربة مكشوفة كان فيها سيمون جالساً بين عمه الدوق وكاسيا، وأخذ الدوق يشير لهما إلى مختلف المعالم الريفية التي ألفها منذ كان صبياً في القصر.

كانت هناك مطحنة لم تكن تعمل حالياً، ولكنه قال إنه مصمم على تشغيلها في اقرب وقت ممكن.

ثم رأوا عن بعد برجاً شاهقاً اخبر سيمون أنه كان يوماً برج مراقبة لمن سبقه من النبلاء ساكني القصر.

وكان هذا أيضاً بحاجة إلى العناية والترميم، وقال له: «إياك ان تقترب منه، إلى ان اجد وقتاً نقوم فيه بإصلاحه.»

فسأله سيمون: «هل كان هناك جنود في برج المراقبة هذا؟»

أجاب الدوق: «اظنهم كانوا من رماة السهام، فكانوا يرمون من أعلى أي عدو يقترب منهم.»

فسألته كاسيا خوفاً من ألا يكون سيمون قد فهم جيداً: «هل كانوا يرمونهم بالقوس والسهم؟»

فقال الدوق: «هذا يذكرني بالوقت الذي كنت فيه صبياً،

حيث كان التسابق برمي الأسهم يقام هنا، وهو شيء أريد ان اعود إليه.»

فقالت كاسيا: «لقد كان أبي علمني استعمال القوس والسهم. واظن لو تشتري واحداً صغيراً لسيمون، لكان سروره كبيراً.»

فسأل سيمون: «ومن سأرمي به؟»

فقال الدوق بحزم: «الهدف ولا شيء سواه، فإذا انت اصبت وسط الهدف، فستنال جائزة.»

فقال ضارعاً: «إذن، ارجوك، دعني احصل على واحد وذلك لكي أربح جوائز كثيرة استطيع معها الذهاب إلى التسوق.»

فقالت كاسيا: «ولكنك اصبحت تحصل على مصروف.»

فقال وكأنه كان ناسياً: «آه نعم.»

فقال الدوق: «هذا شيء كان علي ان اتذكره، وطبعاً يا آنسة واتسون، انا في منتهى الندم.»

فابتسمت كاسيا وهي تقول: «يجب ألا تلوم نفسك، وبعد، فليس لك اولاد لكي تعرف هذه الأمور. وعلى كل حال، اظن ان اقاربك على شيء من الخسة.»

فقال: «هذا هو الوصف الصحيح لهم، وقد قررت على أن لا اكون ابداً بهذه الصفة.»

كان يتكلم بحرارة جعلت كاسيا تعتقد انه هو أيضاً كان قد عانى من خستهم فيما مضى.

وتذكرت انها سمعت مرة من يقول انه كان فقيراً تماماً قبل ان يصبح دوقاً.

وذكرها الحديث عن المال، بثروتها هي ومن ثم باللورد ستيفيلتون.

فتملكها لذلك رجفة جعلت الدوق يسألها: «ماذا يؤلمك؟»

فأدهشها أن يدرك مشاعرها هذه ما جعلها تنظر إليه، فقال: «اشعر ان بإمكاني قراءة مشاعرك يا آنسة واتسون، كما ان عينيك معبرتان جداً.»

أجابت: «مهما يكن، ارجو ان لا تعرف ما افكر فيه لأنه أمر مؤلم جداً.»

فسألها: «لماذا؟»

وإذ لم تجد جواباً لسؤاله، بقيت ساكتة.

ولكن عندما عادوا إلى البيت بعد قضائهم وقتاً استمتعوا اثناءه مع المزارعين كثيراً، عند ذلك قال لها الدوق: «اني اريد التحدث اليك بعد العشاء، يا آنسة واتسون، لقد طلبت منهم بأن يكون عشاء سيمون معك، مع أني اظن من الأفضل ان نتعشى جميعاً معاً.»

وكأنه تذكر فجأة، فقال: «نعم. هذا افضل كثيراً إذ اتأكد بذلك من أن الصبي يأكل جيداً كما يجب لمن هو في عمره.»

فقالت كاسيا: «ولكنني واثقة من أن سيادتك لا تحب تناول العشاء مبكراً.»

فقال الدوق: «سنجعله الساعة السابعة ليلاً، وهذا، على كل حال، الوقت المناسب في الريف لتناول العشاء، وبعد ذلك يمكن لسيمون ان ينام في الساعة السابعة والنصف.»

فابتسم سيمون قائلاً: «إني احب هذا، فهم يحضرون اليك اشياء كثيرة لتأكلها، اني اكره الخبز والحليب. وقد قالت الآنسة واتسون انني اكبر كثيراً من طعام الأطفال هذا.»

فقال الدوق: «الحق مع الآنسة واتسون، إذن، يمكنك الليلة ان تمتع نفسك، إذ اتوقع ان يكون لدينا على العشاء اكثر من

أربعة انواع من الطعام، كالعادة، وفي أقرب وقت ستصبح سميناً كخروف صغير.»

فضحك سيمون وقال: «ولكن إذا انا ركبت المهرة برنسيس واسرعت، فسأصبح نحيفاً مثلك يا عمي.»

فقال الدوق: «هذا هو التفكير الصحيح تماماً، وأنا اوافقك على ما تقول.»

وعندما نظر إلى كاسيا، أدركت هذه جيداً انه إنما أراد أن يتناول العشاء معهما لا شيء إلا لنفي الشعور بالوحدة عن نفسه. وحدثت نفسها قائلة، علي ان لا اشعر بالزهو لذلك إذ اظن انه يحب التحدث إليّ، فالمسألة ليست اكثر من (شيء افضل من لا شيء.) وكل ما هناك انه لا يحب ان يكون وحيداً.

وفي نفس الوقت، تملكها شعور غريب بالبهجة.

لقد شعرت بأنها تحب فعلاً ان تتناول العشاء مع الدوق... ان تتحدث إليه.

وفكرت في انهما، بعد ذهاب سيمون إلى النوم، سيبدآن بالحديث دون انقطاع، كما فعلا الليلة الماضية، وكأن الدوق قد احس بما تفكر فيه، فتلاقت عيناه بعينيها...

وإذا بكل منهما يجد من الصعب ان يحول عينيه عن عيني الآخر.

الفصل السادس

أبعد سيمون صحنه ونهض من أمام مائدة الافطار قائلاً: «إنني سأذهب لأساعد السيد بينيت بالنسبة إلى الأجور.»

فابتسمت كاسيا وهي تقول: «هذا جميل منك. لقد قال إنك ساعدته كثيراً أمس.»

فقال: «إنني لن أتأخر. أين ستكونين؟»

فأجابت: «في غرفة الموسيقى.»

فقال: «آه، هذا أحسن.» ثم توجه نحو الباب. وما ان أغلق الباب خلفه، حتى سألها الدوق: «ما سبب هذا كله؟»

فابتسمت قائلة: «كنت أعلم أنك ستدهش، ولكن بما أن سيمون يهتم بالنقود كثيراً، فقد اقترحت عليه أن يساعد السيد بينيت في عدّ أجور المستخدمين، وهي عملية طويلة حالياً بالنسبة إلى كثرة عدد العمال هنا.»

فأخذ الدوق يحدق إليها وكأنه لم يفهم، بينما استمرت هي قائلة: «إنك تعلم أن السيد بينيت يحسب أجرة كل شخص بالفضة، وهذا معناه عمل كثير. فقال إن سيمون بات ماهراً في ذلك. إنه لم يكد يصدق بأن سيمون قد أصبح خبيراً بمختلف أنواع القطع النقدية بهذه السرعة.»

فقال الدوق: «إنه إذن، درس في الحساب؟»

ابتسمت قائلة: «طبعاً، وسأخبرك بشيء آخر أكثر إثارة من هذا.»

«وما هو؟»

«تذكرت أنني قرأت مرة أن الموسيقيين هم غالباً موهوبون بالحساب... وأمس عزفت لسيمون بعض الألحان على البيانو فاستطاع أن يعاود عزفها على الفور تقريباً وذلك بأصبع واحدة.»

فقال: «لا نهاية لمفاجآتك، يا آنسة واتسون. فهذا ما تقومين به منذ جئت إلى هنا من اسبوع.»

فسألته: «هل ما مضى علي هنا هو أسبوع واحد حقاً؟ إنني لا أكاد أصدق ذلك بالنسبة لكثرة ما حدثت من أمور.»

«ولا أنا. وهذا هو السبب في أنني أريد أن أتحدث إليك.»

وكان في صوته معنى عميق جعلها ترفع بصرها إليه. بدا وكأنهما هما الاثنين، يتحدثان دون كلمات. وإذا بالباب يفتح ويدخل رئيس الخدم قائلاً للدوق: «إن مراقب عمال البناء يريد أن يتحدث إلى سيادتك.»

فقال الدوق: «إنه الرجل الذي كنت أرسلت بطلبه. هل جعلته ينتظر في غرفة المكتب؟»

«نعم، يا سيدي.»

«أخبره بأنني سأحضر حالاً.»

فسار رئيس الخدم نحو الباب، بينما أنهى الدوق قهوته ونهض واقفاً وهو يقول لكاسيا: «لا أظن أنني سأكون هنا أثناء الغداء هذا النهار إذ علي أن أذهب مع هذا الرجل لرؤية إحدى المزارع البعيدة. فالمنزل هناك في حالة لا ينفع معها إصلاح حتى ليكون من الأفضل أن يهدم للأرض ثم يعاد بناؤه من جديد.»

فقال: «إننا، أنا وسيمون، سنفتقدك. ولكنني آمل أن تعود في وقت تناول الشاي.»

فقال: «كوني واثقة من هذا.»

فقالت: «إننا سنذهب بعد الغداء في نزهة على الخيل والبهجة تملأ سيمون لكونك سمحت له بركوب دراغونفلاي.»

فابتسم الدوق: «دراغونفلاي هو أسرع من برينسيس ولكنه مثلها أماناً إلا إذا حدث ما ليس بالحسبان.»

فقالت كاسيا: «سأحاول أن لا أجعل شيئاً يحدث.»

فنظر إليها الدوق مرة أخرى، وبدا وكأنه يريد أن يقول شيئاً. ولكنه ما لبث أن غير رأيه وتحوّل مغادراً غرفة الإفطار بينما كانت كاسيا تفكر في أنها ستفتقده حقاً.

فقد ملأها السرور في الأيام الماضية إذ كانت تتناول الغداء والعشاء معه.

ومع أنها كانت خائفة على الدوام من أن يراهما هي وسيمون مملين، فإنه لم تبد عليه إشارة لذلك. وفي الواقع، كانت كل وجبة حافلة بالمتعة وبضحك لا ينتهي.

وأثناء الغداء، شعرت بالوحشة لغياب الدوق.

وأخذ سيمون يثرثر عن النقود التي كان يساعد السيد بينيت على حسابها، وكذلك عن الموسيقى التي كان يحاول تعلمها.

قال: «أريد أن أعزف بيدي الاثنتين مثلك.»

فقالت: «سيمكنك القيام بذلك بسرعة. وبعد ذلك سنقيم أمسية موسيقية تعزف فيها لعمك.»

فقال: «سيدهش إذ يراني أعزف مثلك.»

«وهو سيسر أيضاً وهو يرى كم أصبحت ماهراً.»

فقال بلهجة المنتصر: «أصبحت من المهارة بحيث صرت أركب حصاناً سريعاً.»

وكان دراغونفلاي حصاناً رائع الشكل. وعندما امتطى

سيمون صهوته فكرت كاسيا في أن من المؤسف أن لا يكون الدوق هنا ليرى مبلغ ما بدا عليه منظره من جمال.

سارا في طريقهما المعتاد حيث دخلا المرعى أولاً، ثم خرجا إلى السهول المترامية خلفه.

استمرا في سيرهما إلى أن وصلا إلى مجموعة من الأشجار وهناك كان عليهما أن يسيرا واحداً خلف الآخر. وفي الناحية الأخرى، كانت هناك قطعة أرض كانا قد اعتادا التنزه فيها من قبل.

لقد أصبحا الآن بعيدين تماماً عن القصر، ولكن كاسيا فكرت في أن لا معنى لرجوعهما باكراً لكي يجلسا في انتظار الدوق.

وصاح سيمون: «أنظري كم أستطيع أن أسرع.»

ولم يكن أمامها سوى أن تعترف بأنه راكب جيد حتى ان حصانها أخذ يجهد نفسه ليبقى في مستواه.

ثم ما أن سبقها سيمون داخلاً خلال مجموعة من الأشجار، حتى خرج فجأة رجلان من خلف الأشجار.

وقبل أن تدرك كاسيا ما يحدث، كانا قد أمسكا بلجام حصان سيمون. وفي نفس الوقت، كان رجلان آخران يقفان بجانبهما وأيديهما على اللجام.

فسألتهما: «من أنتما؟ وماذا تريدان؟»

أجاب أحدهما بصوت خشن: «ستعلمين حالاً.»

وتملكها الرعب وهما يسحبانها من على ظهر الحصان إلى الأرض. عند ذلك سمعت سيمون يصرخ بعد أن سحباه هو أيضاً إلى الأرض.

حاولت أن تسألهم: «ماذا تفعلون؟»

ولكن سرعان ما كانت كمامة تربط على فمها، ويلتف حولها حبل يقيد ذراعيها إلى جانبيها.

وحاولت النضال ولكن دون فائدة.

وبعد ذلك بدقيقة، كانت قطعة قماش تلقى على رأسها ما حجب عنها الرؤية.

ووجدت نفسها تُجر مسافة غير قصيرة، وفكرت من أنهما لا بد خرجا الآن من الغابة.

وتأكدت من ذلك عندما شعرت بنفسها توضع بشيء من الخشونة في ما يشبه العربة.

وأحست بسيمون يوضع بجانبها، ثم سارت العربة، ولما لم يكن بإمكانها الكلام أو الرؤية، إكتفت بالاستماع.

رأت أن العربة لا بد أن تكون من ذلك الطراز الذي يستعمله المزارعون، ويجره حصان واحد.

وأخذت تتساءل بلهفة عمن تراهم يكونون، وما هذا الذي يفعلونه، ولماذا كانوا في انتظارهما؟

ثم تأكدت من أنهم يقصدون أن يأخذوا سيمون أسيراً لكي يطلبوا فدية من الدوق.

فقد كان أبوها دوماً يخاف عليها من أن يحدث لها مثل هذا الأمر. ولكن لم يحدث لها شيء على كل حال.

ومع هذا، كان دائم الإصرار على أن يكون الحارس الليلي عنده سلحاً. وأثناء أسفارهما كانت تعلم، رغم أن أباها لم يكن يخبرها ذلك، أنه كان يحتفظ دوماً بمسدس محشو بجانب سريره.

ذلك أنه منذ انتهاء الحرب، أخذ الرجال يعودون إلى بلادهم دون تعويض ودون عمل.

وهكذا ارتفعت نسبة الجرائم في الطرقات والمدن، وكثر

قطاع الطرق، والنهابون والمحتالون والرجال الذين يدفعهم الجوع إلى سلب من يظنونهم أغنياء.

وتساءلت عما سيفعله الدوق. هل سيحاول إنقاذهما إذا طلب هؤلاء الرجال فدية عن سيمون؟

ثم تذكرت، وقد تملكها اليأس، مبلغ اتساع أراضي المقاطعة، وكثرة البراري وتباعد السكان.

فإذا تمكن خاطفوهما من إخفائهما بمهارة، فسيكون من الصعب على الدوق أن يكوّن فكرة عن مكانهما.

واستمرت العربة، التي كانت تقلها وسيمون تعلو وتهبط فوق الأرض الوعرة غير المستوية. وهذا ما جعل كاسيا واثقة من أنهم يأخذونهما إلى مكان منعزل لا يمكن أن يعثر عليهما أحد.

وأخذت ترتجف خوفاً مما ينتظرهما.

ولا بد أنه مضت نصف ساعة وربما أكثر عندما وقفت بهما العربة. وسحبتها ذراعا رجل بخشونة من آخر العربة ثم حملتاها وأدركت من الحركة التي بجانبها أن رجلاً آخر كان يخرج سيمون هو أيضاً.

وسار الرجل الذي يحملها صامتاً فترة، ثم قال: «عليك أن تساعدني عندما نصعد السلالم.»

فأجاب صوت آخر: «ولكن الضوء يبدو لي كافياً.»

فقال الأول بغضب شديد: «بل ستساعدني.» ثم صعدا بها سلالم شاهقة العلو.

في البداية كانت تظن أنهم في الخارج، ولكن ما أن أخذا يصعدان ويصعدان، حتى أدركت أنهم في داخل بناية واستمرا في الصعود بها ما جعلها تدرك السبب في رفض

الرجل الأول الذي كان يحملها الصعود بها وحده. وعندما انتهت الدرجات، سار بها الرجلان على أرض خشبية، وما لبثا أن وضعاها على الأرض.

عند ذلك، رفعوا قطعة القماش عن رأسها ما جعلها تشعر بالارتياح.

أخذت تطرف بعينيها فترة لتعتادا الضوء المفاجيء.

ثم ما لبثت أن أدركت أنها جالسة على الأرض في غرفة صغيرة.

وكان واقفاً أمامها رجلان ذي منظر فظ ينظران إليها.

وكانت واثقة من مظهرهما ومن طريقة حديثهما أنهما من سكان المدن. ولم تعرف سبب شعورها هذا، ولكنهما لم يبدوا لها من القرويين.

ونظرت حولها بسرعة لترى إن كان سيمون معها.

وشعرت بالارتياح وهي ترى أنهم كانوا أحضروه لتوهم إلى الغرفة.

وكان الرجل الذي أحضره يحمله على كتفه كرجل المطافيء.

وضع الطفل بجانب كاسيا بينما قال أحدهم: «كن حريصاً بالنسبة إليه، فهو يساوي مالاً كثيراً.»

فضحك الرجل الذي كان يحمل سيمون وقال: «هذا ما نرجوه. ولكنني أفضل أن أحمله في جيبي وليس على ظهري.»

وكان الغطاء قد رفع عن رأس سيمون.

وسأل الرجل الذي كان يحمله: «هل أفك وثاقهما، أم أتركهما؟»

فأجاب رجل آخر: «بل فك وثاقهما، هذا إلى أن عليها أن تكتب رسالة لأجلنا.»

قال هذا مشيراً إلى كاسيا، فأومأ الرجل الآخر برأسه، ثم قال: «لقد تركت الورق والحبر أسفل.»

وسار عابراً الغرفة، وسمعت كاسيا وقع أقدامه وهو يهبط السلم عائداً من حيث جاؤوا.

ورفع الرجلان الباقيان الكمامتين عن فميهما، هي وسيمون. ثم فكا وثاقهما.

وعندما استطاع سيمون الكلام، سألهما: «من أنتم ولماذا تفعلون ذلك؟»

فأجاب أحدهما: «هذا سؤال جيد يا بني. فإذا أنت أحسنت التصرف، فنحن أصدقاؤك، وإلا فنحن أعداؤك.»

فعاد سيمون يسأل: «لماذا أحضرتموني إلى هنا؟»

فرفع الرجل إصبعه مهدداً وهو يقول: «لا تكثر من الأسئلة، فستعرف الجواب حالاً عندما يعود بيل.»

فقال سيمون: «ليس لكم الحق في إحضارنا إلى هنا أبداً. إن عمي سيغضب كثيراً.»

أجاب أحدهما: «إننا نرجو أن يقلق كثيراً. نحن في الواقع، واثقون من ذلك.»

فقالت كاسيا بصوت حاولت أن تجعله متزناً: «أظن أنكم أحضرتمونا إلى هنا طلباً للمال، هذا إذا لم أكن مخطئة.»

فأجاب أحد الرجلين بلهجة ساخرة: «يا لك من فتاة ذكية.»

وهنا سمع صوت بيل الذي كان نزل ليحضر الورق والمحبرة، عائداً. وأدار الرجلان رأسيهما إليه.

كان يلهث وهو يدخل الغرفة ويقول متذمراً: «إن تلك السلالم تسبب أزمة قلبية. والآن، فلننه عملنا وكلما أسرعنا في إحضار المال منهم، كان ذلك أفضل.»

فأجاب أحد الرجلين الآخرين: «أنا أوافقك على ذلك.»

وجلس بيل بجانب كاسيا وبيده الورق والمحبرة.

ورأت في يده أيضاً ريشة كتابة قذرة.

قال لها: «والآن اكتبي رسالة إلى عمه وأخبريه أنه إذا أراد أن يرى الصبي مرة أخرى، فعليه أن يدفع ألفي جنيه، ونريدهما نقداً.»

فسألته: «وأين تنتظرونه ليسلمكم المال؟»

فأطلق ضحكة كريهة وهو يجيب قائلاً: «إننا لسنا أغبياء لهذه الدرجة. يمكنك أن تخبريه بأن يضع النقود داخل باب المطحنة القديمة المهشم.»

وتذكرت كاسيا تلك المطحنة التي أشار إليها الدوق عندما خرجا معه إلى المزرعة. فأومأت برأسها بينما كان الرجل يتابع قائلاً: «وأخبريه أننا، عندم يضع المال هناك، لا نريد أن يكون هناك أحد للقبض علينا. وأن يضع علماً أبيض على سطح القصر.»

فقال أحد الرجلين: «هذا حسن، وعندما نرى نحن العلم هناك، نذهب إلى المطحنة.»

فقال الرجل الآخر وهو يشير إلى كاسيا: «فليذهب واحد منا فقط. فإذا لم يضعوا النقود، أو إذا كان هناك تحايل وخداع، فستموتان أنتما الاثنان، أوضحي ذلك في الرسالة.»

فقالت كاسيا: «سأكتب ما تقوله لي. ولكنني أظنكما تتصرفان جميعاً بشكل سيء جداً.»

ضحك بيل ساخراً: «تصرفنا هذا سيء جداً. أما أن يكون لدى الدوق أكياس مليئة بالأموال، بينما نحن لا نملك شيئاً، فهذا ليس سيئاً جداً.»

فقال أحد الرجلين: «آه، هيا، دعنا نتابع عملنا. إن لوك سياتي بعد دقائق فيأخذ الرسالة إلى المطحنة القديمة.»

أجاب بيل: «إن بإمكانه السير بسرعة كافية. وهو الآن يعيد العربة إلى مكانها.»

وكان يتكلم بفروغ صبر وهو يضع الورقة والقلم بجانب كاسيا. وكانت جالسة مستندة بظهرها إلى الجدار، عندما قالت: «من الصعب علي الكتابة بهذا الشكل أليس هناك صندوق أو شيء أضع عليه الورقة؟»

فقال الرجل ساخراً: «آه، لقد تذكرت أننا لسنا على ما يكفي من اللياقة بالنسبة إلى سيادتك.»

ولكن بيل قال: «دعها تكتب كما يجب. سأفتش لها عن شيء في الأسفل.» وعاد يهبط السلالم.

فنظرت كاسيا نحو سيمون. وشعرت بالارتياح عندما لم يبد لها بالغ الخوف، بل كان ينقل نظراته فقط من رجل إلى آخر وكأنه لا يكاد يصدق ما يحدث.

مدت إليه يدها، فقال: «هذا أشبه بالحكايات، يا آنسة واتسون. أليس كذلك؟»

فابتسمت له قائلة: «بالضبط. وطبعاً علينا أن نفعل ما يقوله لنا هؤلاء الرجال.»

فقال أحد الرجلين: «هذا صحيح، إن لديك الرأي الصواب. وإذا كنت مربية حقاً كما قيل لنا، فأنت تستحقين علامة كاملة.»

سألته: «من أخبركم أنني مربية؟»

أجاب: «إنني لن أكشف عن الأسماء، فذلك قد يسبب لنا المتاعب.»

وهنا سمعوا صوت بيل عائداً من أسفل. وبعد ذلك بثوان، برز من الباب حاملاً صندوقاً خشبياً وهو يقول: «إليك بهذه المنضدة أحضرتها إليك من قصر الملكة، ماذا تريدين أكثر من ذلك؟»

فوضعت كاسيا الورق على الصندوق، ووضع أحد الرجال المحبرة.

وما أن أمسكت بالقلم، حتى قال بيل: «انتبهي إلي ما ستقولينه في الرسالة. إياك أن تشيري إلى مكاننا هذا، وإلا ضربتك على رأسك، وكذلك الولد أيضاً.»

كان يتكلم بشراسة مخيفة، فقالت كاسيا بهدوء: «يمكنك أن تملي الرسالة علي، كلمة كلمة، إذا شئت.»

«هيا اكتبي. أخبري الدوق أن يدفع لنا المبلغ بسرعة وهذا هو المهم.»

فقال رجل آخر موافقاً: «معك حق، هذا كل ما نريد.»

فقالت كاسيا: «حسناً جداً.»

أخذت تتساءل عن الطريقة التي يمكنها بها أن تكتب إشارة خفية إلى الدوق تطلعه بها على مكانهما، بينما هي نفسها لا تعرف هذا المكان.

ثم وكأنما كان سيمون يتساءل عن نفس الموضوع، قال: «إنني أعرف أين نحن، إننا في برج المراقبة وهو خطر... خطر جداً.»

فنظر الرجال الواحد منهما إلى الآخر وكأنهم دهشوا لما

سمعوه. ثم أجاب واحد منهم: «معك حق، وما كان لنا الحضور إلى هنا، وكلما أسرعنا بترك هذا المكان كان ذلك أفضل. وإذا انتظرنا الحصول على المبلغ مدة طويلة، فقد ينهار المبنى عليكما وتموتان تحت الأنقاض.»

فاستدار سيمون نحو كاسيا: «قال عمي دراسي انه خطر جداً وأن علي أن لا أحضر إلى هنا أبداً.»

فأجابت: «أعلم ذلك. وأنا واثقة من أنه سيغضب جداً عندما يعلم أنهم أحضرونا إلى هنا.»

فقاطعهما بيل: «دعي عنك هذا الموضوع الآن، وتابعي الكتابة. وكلما أسرع في دفع النقود، كان ذهابكما إلى البيت سريعاً. وإذا هو لم يدفع، فسنقفل عليكما الباب ولن يعثر عليكما أحد.»

وأثناء كلامه، أخرج من جيبه مسدساً وهو يقول: «لا أريد أن أسمع أي كلام، وإلا فسأطلق عليكما النار.»

كان واضحاً لكاسيا أنه قائد المجموعة. وتأكدت من ذلك عندما جاء الرجل المدعو لوك والذي كان يعيد العربة والحصان إلى مكانهما.

وعندما رآه بيل، قال: «هذا حسن. فإن لدينا مهمة لك حيث أنك أسرع واحد بيننا.»

فقال لوك: «إنني أعرف أنكم تكلفوني دوماً بأقذر المهمات.»

أجاب بيل: «إنها لن تكون مهمة وقذرة عندما تخشخش النقود في جيبك.»

وكانت كاسيا تكتب بسرعة. وفي نفس الوقت كانت تتساءل بذعر عن الطريقة التي تستطيع بها اخبار الدوق بمكانهما دون أن يشعر الرجال بذلك.

كانت واثقة من أنها إذا كتبت شيئاً مثل أننا نترقب جوابك، فهم من الذكاء بحيث يدركون ما تحاول أن تشير إليه عن برج المراقبة.

وخطرت ببالها فكرة سرعان ما نفذتها. أعادت النظر بحذر فيما كتبت، ثم أنهت الرسالة ومهرتها بإمضائها. ثم ناولتها إلى بيل الذي كان واقفاً يراقبها، وهي تسأله: «هل هذا ما أردتني أن أكتبه؟»

أخذ منها رسالة، ثم أخذ يتلوها بصوت عال أساء لفظ بعض الكلمات، ولكنها أدركت أنه يعرف القراءة.

كما أدركت بأن الرجال الآخرين ما كانوا ليستطيعوا قراءتها بسهولة.

توقف مرة أو مرتين عندما وجد بعض الصعوبة.

وأدركت أن هذا كان راجعاً إلى ثخانة رأس الريشة ورداءة الورق وليس إلى خطها هي.

وأخيراً قال: «لا بأس في هذا، وقد وضعت إمضاءك، ولكنه إسم لم أسمع به من قبل.»

عند ذلك أطلقت كاسيا شهقة قصيرة.

ذلك أنها لشدة تركيزها على كتابة إشارة خفية تكشف للدوق عن مكانهما، وضعت إسمها كاسيا واتسون بدلاً من كيت.

كان هذا غباء منها، ولكنها رأت أنه أمر ليس له أهمية.

وكان من الخطأ البالغ أن يعلم الرجال أنها تتخفى بغير اسمها، على كل حال.

فسألته: «هل الرسالة جيدة؟»

فأجاب بيل: «إنك أوضحت ما نريد. ونأمل، لأجل مصلحتكما، أن يضع الدوق المال حيث أخبرناه.»

فأجابت كاسيا: «لقد كتبت ما كنت أخبرتني أن أقوله.»

قال لوك: «والآن، الأمر لهم. لقد أعجبتني فكرة رفع العلم الأبيض فوق القصر.»

فقال بيل ضاحكاً: «هذا يعني استسلامه. أليس كذلك؟»

فقال سيمون على غير انتظار: «هذا شيء لم يفعله عمي دارسي في الحرب قط. ولهذا ربما سيحاربكم.»

فرد عليه بيل: «إذا كان سيفعل ذلك، فنحن مستعدون له. أليس كذلك يا شباب؟» وربت على جيبه الذي يضع فيه المسدس.

وعندما فعل الآخرون الشيء نفسه، غاص قلب كاسيا بين ضلوعها وهي ترى أنهم جميعاً مسلحون. كل ما كانت ترجوه هو أن لا يأتي الدوق إليهم دون سلاح.

ولكنها عادت تحدث نفسها بأن من غير المحتمل أن يفهم الدوق من رسالتها ما أرادته أن يفهم.

وابتدأت تتمنى لو أنها لن تكتب ذلك، واقتصرت على ما أرادوها أن تكتبه.

وبعد، فهو ليس مبلغاً باهظاً ذلك الذي يطلبونه فهذا مبلغ هو موجود عادة عنده في المكتب. فقد كانت واثقة من أن الدوق يحتفظ، عدا عن أجور المستخدمين المفروض دفعها يوم الجمعة، يحتفظ بمزيد من المال لشراء المواد الضرورية لإصلاح القصر.

وكذلك للإنفاق على الحيوانات، ولشراء الآلات الزراعية التي يطلبها المزارعون.

وألقى بيل نظرة أخيرة على الرسالة، ثم طواها وأعادها إلى كاسيا آمراً: «ضعي إسمه على خارجها.»

فأجابت: «نعم طبعاً.»

وكتبت بأحرف طباعة كبيرة.

إلى سيادة الدوق أوف دريغورن.

ثم أعادتها إلى بيل.

فقال: «هيا يا لوك، إذهب بالرسالة وحذار من أن يراك أحد وأنت تدفعها خلال باب المطحنة القديمة، أو من خلال النافذة.»

فأطلقت كاسيا صرخة خافتة، ثم قالت: «إفترض أنه لم يراها أحد؟ ربما تمضي شهور قبل أن يدرك الدوق ما حدث لنا أو ما ترويدونه أنتم.»

فقال واحد منهم «هذا صحيح يا بيل.»

فقال لوك: «إنني لن أذهب إلى القصر فأتعرض للقبض علي.»

فقالت كاسيا: «لا أرى في ذلك أية مشكلة. يمكنك أن تناولهم الرسالة من الباب. وسيأخذها خادم دون أن يعلم أحد ما بداخلها، إلى أن يفتحها الدوق ويقرأها.»

فبقي الرجال صامتين، بينما تابعت هي: «يمكنه أن يضع حول عنقه وشاحاً يخفي معظم تقاطيع وجهه. وأعطوه قبعة يجذبها فوق عينيه.»

وسكتت لحظة، ثم تابعت تقول: «إن الرسالة سيستغرق وصولها إلى سيادة الدوق بعض الوقت. وأثناء ذلك سيكون لوك في منتصف طريق عودته إلى هنا.»

فقال بيل: «هذا منتهى العقل، وحالما نحصل نحن على النقود نعود من حيث أتينا وهذا هو المهم.»

فقال لوك: «هذا لا يعجبني. إنني أخاف من الذهاب إلى الباب الأمامي حيث يحملق بي الخدم.»

فقالت كاسيا: «هنالك، حالياً كثير من العمّال يذهبون ويجيئون، فأنا واثقة من أن لا أحد سيهتم بك بشكل خاص.»

ونظرت إليه لتتأكد من أنهم يستمعون إليها، ثم عادت تقول: «ولكن بإمكانك إذا شئت، أن تذهب إلى مدخل العمال حيث سيظنونك أحد العمال. أخبرهم أنها رسالة مستعجلة إلى سيادته.»

فقال بيل: «هذا أنسب، إذهب إذن إلى مدخل العمال يا لوك فهذا أفضل بالنسبة إليك.»

فقال لوك والذي كان رجلاً ماكراً صغير الحجم: «حسناً، سأفعل ما تريده مني يا بيل. ولكن كل ما أرجوه أن لا أقع في فخ منصوب.»

فقال بيل: «إذا حدث هذا، فهذه السيدة الصغيرة الماهرة تعلم ما سيحدث لها.»

ثم ألقى على كاسيا نظرة مخيفة جعلتها ترتجف.

وإذ بسيمون يقول: «كان عمي دارسي قال إنه سيعود إلى البيت في وقت الشاي، وسيتساءل أين نحن الآن.»

فقال بيل: «وهذا ما سنخبره به. وأنا أظنك أيها الصغير تريد كوباً من الشاي، حسناً هذا شيء لن تحصل عليه إذا نحن لم نحصل على شيء.»

وضحك على نكتته هذه وهو يتابع قائلاً: «إذا كنت جائعاً فسأسرع بك إلى منزلك في حالة دفع عمك لنا المال.»

واستدار نحو كاسيا قائلاً بخبث: «من المؤسف أنك لم تضيفي إلى الرسالة أنه إذا هو أبطأ في تلبيتنا، فسيزداد جوعكما أنتما الاثنين.» وضحك مرة أخرى. ثم سار نحو السلم يهبطه. وتبعه الرجلان الآخران وهما يلتفتان ناظرين

إلى سيمون وقد ظهر في أعينهما تعبير كريه. وأغلقا الباب الخشبي خلفهما.

وتساءلت هي عما إذا كانا أقفلاه. وحيث أنها لم تسمع صوت مفتاح يدار في القفل، فلا بد أنه كما افترضت لا يوجد مفتاح هناك.

وما أن ذهبوا جميعاً حتى قفز سيمون من مكانه، وهو يقول: «انهم أوغاد سيئون. فقد سجنونا كشخصين في حكاية، تماماً.»

فقالت كاسيا: «اقترب مني وسأخبرك بسر.»

فانتقل إلى جانبها بسرعة وهو يسألها: «ما هو؟»

فهمست تقول: «لقد وضعت إشارة سرية أرجو أن يعلم منها عمك مكاننا. والآن علينا أن نرجو ونتمنى لكي يفهم الإشارة.»

الفصل السابع

وصل الدوق عائداً إلى القصر بعد الخامسة مباشرة ثم توجه رأساً إلى غرفة الاستقبال.

فتح الباب موشكاً أن ينطق بجملة (آسف لتأخري). ولكن الدهشة تملكته عندما لم ير أحداً.

وظن انهما لا بد انتهيا من تناول الشاي ثم خرجا، ولكنه عندما نظر إلى المائدة، وجد الطعام لم يمس.

قرع الجرس فأسرع رئيس الخدم إلى جانبه.

«أين سيمون والآنسة واتسون؟»

«انهما لم يعودا بعد، يا سيادة الدوق.»

فقال الدوق وهو يرفع عينيه إلى ساعة الحائط: «لم يعودا بعد؟ لقد تأخرا كثيراً.»

«لقد كنت اتساءل عما حدث لهما، يا سيدي.»

«اذهب وانظر إذا كانا في الاسطبل.»

فابتعد رئيس الخدم مطيعاً، بينما سار الدوق نحو النافذة، وهو يفكر في كاسيا كما كان يفكر فيها طوال العصر. لقد كان اعترف بينه وبين نفسه، أنه مغرم إلى حد لم يعرفه في حياته.

ولكنه لم يكن واثقاً مما سيفعل إزاء ذلك، كان يعلم، حيث أنه استلم الدوقية حديثاً، أن أسرته تتوقع منه أن يتزوج من امرأة نسبها يعادل نسبه وذات مركز اجتماعي.

اما ان يتزوج إحدى مستخدماته، فهذا شيء لا يمكن

التفكير فيه. إن بإمكانه أن يتصور مقدار الهلع الذي سيصاب به أفراد أسرته حينذاك.

أدرك أن الحب بدأ يتسلل إلى كيانه منذ اللحظة التي وقعت فيها عيناه على ذلك الوجه الصغير.

كما كان يدرك أيضاً أنه لم يقابل قط من قبل امرأة تثير الاهتمام مثلها. فقد كانت ذكية إلى درجة غير عادية، كما انها مثقفة وقارئة جيدة. ذلك انه لم يكن بإمكان أحد ان يفهم مشكلة سيمون ويعالجها إلا إذا كان ذا مهارة غير عادية.

فقد كان التغير في شخصية الصبي، مذهلاً، وكان يعلم ان اقرباءه، إذا عادوا فرأوه، لن يصدقوا اعينهم.

كيف يمكن ان يكون هو نفس الصبي الذي اخذوا يطردونه واحداً بعد الآخر، لأنه كان من التمرد بحيث لم يستطيعوا السيطرة عليه؟

وكان على الدوق ان يعترف بأنه ليس هو الذي وصل إلى هذه النتيجة، بل مربية سيمون.

مربية... مربية...

وبدا وكأن هذه الكلمة تكرر نفسها مرة بعد مرة في عقله.

فهي فتاة مستخدمة عنده يدفع لها أجر خدماتها، فكيف يستطيع ان يتزوجها؟ كيف يتصرف نحو من يحب؟

وعاد يعترف لنفسه متسائلاً، إني احبها، فماذا بإمكاني ان اصنع؟

وسمع شخصاً يدخل غرفة الجلوس، فادار رأسه بلهفة ولكنه لم يكن سوى رئيس الخدم عائداً وهو يقول: «اخشى ان تكون هناك اخبار سيئة، يا سيدي.»

فردد الدوق كلامه: «اخبار سيئة؟»

«لقد عاد إلى الاسطبل الحصان الذي كانت تمتطيه الآنسة واتسون، وذلك دون راكبته. وليس ثمة أثر لدراغونفلاي حصان سيمون.»

فهتف الدوق: «لا بد انه قد حدث لهما حادث، هل لدى احد فكرة عن مكان ذهابهما؟»

فهز داوسن رأسه: «كلا، يا سيادة الدوق، فقد كانا ذهبا، بعد الغداء، في طريقهما اليومي المعتاد خلال المرعى.»

فقال: «سأذهب للبحث عنهما.»

وبدا له غريباً ان تسقط الآنسة واتسون عن ظهر حصانها وهو يعرفها فارسة ممتازة. ولكن هذا، كما رأى، ما لا بد انه حصل، لأن حصانها عاد وحده، ولا بد أن سيمون بقي بجانبها، ربما كسرت ساقها أو ما هو أسوأ.

وشعر الدوق وكأن سكيناً غرز في قلبه، وسار نحو الباب بنية الإتجاه نحو الاسطبل، ولكن داوسن أوقفه قائلاً: «هناك رسالة باسم سيادتك وصلت لتوها. وقد قال الرجل الذي احضرها إلى مدخل العمال، انها مستعجلة.»

وأوشك الدوق ان يرد عليه قائلاً، انه سيراها بعد عودته، ولكن خطر بباله انها إذا كانت مستعجلة، فهي تتعلق بالآنسة واتسون وسيمون.

ودون ان يتكلم، مد يده يأخذها من داوسن، فتحها الدوق، وما لبث ان جمد في مكانه، ثم قرأ:

سيادة الدوق،

إننا، انا وسيمون، سجينان عند اشخاص يطلبون فدية الفي جنيه نقداً.

انهم يريدونك ان تضع المال في باب المطحنة القديمة

المحطم، ثم ترفع علماً أبيض عند أعلى القصر لكي يعلموا ان النقود أصبحت هناك.

إذا لم تدفع المال، فقد هددوا بانك لن ترى أياً منا مرة أخرى. لقد اخبروني ان اطلب منك ان تدفع حالاً.

الآنسة كاسيا واتسون.

قرأ الدوق رسالة كاسيا مرتين، ثم ابتدأ العمل.

ابتدأت الظلمة تنتشر تدريجياً في الغرفة الواقعة في قمة برج المراقبة.

اقترب سيمون من كاسيا، وقال: «إني جائع.»

فأجابت: «انا اعلم انك لا بد أن تكون كذلك. وكل أملي هو أن لا يتأخر عمك إما في دفع النقود لأولئك الرجال المخيفين، وإما في إنقاذنا.»

فسألها: «هل تظنين انه سيفهم ماحاولت ان تخبريه؟»

فقالت: «لقد كان عليّ ان اقوم بذلك بغاية الحذر، ولكنني اظن انه عندما يقرأ الرسالة سيجد من الغريب انني شددت القلم على حرفي (ب) من كلمة (باب) و(م) من كلمة مطحنة، وهما الحرفان الأولان من كلمتي برج المراقبة.»

«وهل تظنينه سيفهم اننا في برج المراقبة؟»

فقالت كاسيا: «اتمنى ان يفهم، وهذا ما عليك ان تتمناه أنت أيضاً.»

وسكتت قليلاً، ثم أردفت تقول باسمة: «في الهند، يصدق الهنود بما يسمونه قوة الفكر، فقد قرأت في الكتب انه يحدث لرجل ان يعلم بأن والده، والذي يبعد عنه مسافة مئات الأميال، قد مات، وذلك دون ان يكون بينهما أي اتصال، ما عدا انه يعلم في عقله أنه صحيح.»

فقال سيمون: «إذن، يجب ان نرسل رسالة إلى عقل عمي دارسي.»

فأجابت: «هذا ما احاول ان افعله، وعليك ان تساعدني.»

فسألها: «كيف؟»

أجابت: «فكر في عمك، حاول ان تتصوره واقفاً في غرفة الجلوس أو مكتبه، وقل في قلبك على الدوام. (برج المراقبة. برج المراقبة.)

فقال سيمون: «سأحاول هذا. سأحاول كل جهدي فأنا لا احب ان أبقى هنا.»

فأجابت: «ولا انا.» وفيما بعد، عندما أدركت انه نام، خلعت سترتها وجعلت منها وسادة وضعتها تحت رأسه.

وعندما نقلت رأسه عليها، لم يستيقظ وإنما تمتم قائلاً والنعاس يغالبه: (برج... المراقبة... برج... المراقبة...

وكان البرج قد أمسى الآن حار الجو، فسارت إلى النافذة تفتحها على اتساعها.

كانت النجوم قد ابتدأت تتألق في السماء.

وكذلك القمر كان يزحف من بين الغيوم، غامراً الأرض بضوئه الفضي. وكانت الظلال مستطيلة معتمة... وبدت لكاسيا كم هي فارغة موحشة.

لقد كان هذا مكاناً صالحاً تماماً للاختباء إذ لم يكن ثمة سبب يدفع احداً إلى المرور بجانب البرج هذا.

فالحقول حوله لم تكن محروثة أو مزروعة.

وساورها شعور مخيف بان الدوق لم يفهم إشارتها في تلك الرسالة. وكذلك قد لا يخضع لمطالب الآخرين، كيلا يتعودوا على هذا العمل، ذلك انهم إذا نجحوا في الاستيلاء

على نقود منه، سرعان ما سيكررون ذلك مع صبي آخر حالما تنفد تلك النقود.

وشعرت بنفسها ترتجف إذ تفكر في انهما، هي وسيمون، سيتركان للموت جوعاً إذا لم تمتد إليهما يد الإنقاذ. أو ربما يقتلهما أولئك الأوغاد الجالسين عند أسفل البرج قبل أن يرحلا للبحث عن فريسة أخرى.

وإذ لم تعد تحتمل منظر الحقول المقفرة، عادت فجلست قرب سيمون. لقد كان في منتهى الشجاعة في هذا الموقف الذي كان فيه أي صبي آخر سيصرخ فزعاً ويتعلق بها.

وحدثت نفسها قائلة بانه عندما يكبر، سيكون بالغ الشجاعة مثل عمه الدوق. حتى مجرد تفكيرها في الدوق، كان يصوره أمامها منتصباً على حصانه الفحل الأسود.

وتذكرت كيف تقابلت نظراتهما هذا الصباح وهو يقول لها ان هناك ما يريد ان يحدثها عنه.

وتساءلت عما كان يريد ان يخبرها به.

وكانت شبه خائفة من أنه كان سيخبرها بأن عليه أن يعود إلى لندن، وأن عليها أن تعالج أمر سيمون وحدها.

فجأة سمعت صوتاً كان أشبه بخشخشة... وخطر لها فجأة، وقد انتابها الذعر، في أنها جرذان. فقد كانت دوماً تخاف من الجرذان.

ولا شك أنها كانت تملأ البرج الذي لم يكن يطرقه أحد، وأخذ الصوت بالإرتفاع، وفكرت في أنه لا بد أن هنا عدداً كبيراً منهم.

وفكرت برعب في انها إذا صرخت فسيصعد إليها الرجال من أسفل وينقذونهما هي وسيمون.

وتحفزت للوقوف، ولكنها انتبهت إلى ان ضوء القمر الذي كان يتدفق من النافذة، قد غاب فجأة.

ومضت لحظة لم تستطع ان تدرك فيها ما يحدث، سمعت حركة، وشعرت، دون ان ترى، بساق تدخل من خلال النافذة المفتوحة. وتبع الساق جسم رجل ما أن رأته حتى قفزت واقفة. فقد كان الدوق بذاته.

وما ان لمست قدماه الأرض، حتى اندفعت نحوه وهي تتكلم وتبكي فرحاً.

همس لها: «لا تحدثي صوتاً، كم رجلاً هم؟»

فتمتمت: «أربعة، وهم مسلحون.»

«ألم يؤذوك بشيء؟»

«كلا، كلا، نحن بخير، وسيمون نائم.»

تقدم الدوق قليلاً إلى وسط الغرفة حيث رأى سيمون مستلقياً على الأرض. وعاد يهمس إليها: «ايقظي سيمون وقفي معه خلف الباب.»

وأرادت ان تلقي عليه اسئلة، ولكنه كان قد اشاح بوجهه عنها.

أخرج مسدسه من جيبه، ثم اطلقه من النافذة، وايقظ صوت اطلاق النار، سيمون من نومه فأوقفته كاسيا على قدميه وهو يهتف: «عمي دارسي، كنت اعلم انك ستأتي.»

فلم يجب الدوق، وإذ كانت كاسيا تعلم أن عليها ان تطيعه، جذبت سيمون نحو الباب.

وقال الدوق بهدوء: «افتحيه.»

ففعلت ذلك حتى أصبحت هي وسيمون متواريين خلفه.

عند ذلك سمعت اصوات طلقات رصاص من الأسفل،

وأدركت كاسيا أن رجال الدوق الذين اتوا معه، كانوا يطلقون الرصاص على بيل ورفاقه.

وسمعت وقع اقدام تصعد السلالم فيقعقع الخشب تحتها.

كان القادم هو بيل الذي اندفع إلى الغرفة والمسدس في يده. وكان يصوبه إلى المكان الذي كانت تحتله هي وسيمون قبل ان ينتقلا إلى خلف الباب، وما أن تقدم خطوة إلى الأمام، حتى اطلق عليه الدوق النار فأصابه في ذراعه اليمنى. وسقط المسدس من يده على الأرض.

وصرخ بيل: «لقد قتلتني، قتلتني.»

أجاب الدوق: «انك حي لسوء الحظ، إنزل إلى الأسفل والتحق برجالك الأنذال.»

فاستدار بيل وهو يمسك بذراعه المصابة.

والتقط الدوق المسدس الذي سقط من الرجل، وكان صوت الرصاص قد توقف، فقال لكاسيا: «امكثا هنا إلى ان اناديكما، ولكنني اظن الآن ان بإمكاننا جميعاً ان نذهب إلى البيت.»

فقال سيمون باعجاب: «كان اطلاقك النار جيداً، يا عمي دارسي. هل يمكنني ان آخذ المسدس؟»

فأفرغ الدوق المسدس من الرصاصات الباقية، ثم ناوله لسيمون قائلاً: «احرس كاسيا.»

ثم هبط السلم لاحقاً ببيل.

وجلست كاسيا على الأرض بعد ان شعرت بأن ساقيها لم تعودا تستطيعان حملها. بعد قليل سمعت صوت الدوق يناديهما: «إنزلا، لقد انتهى كل شيء.»

فقفزت كاسيا واقفة، ثم التقطت سترتها ترتديها، هذا

بينما كان سيمون قد سبقها هابطاً السلالم رغم صعوبة رؤية الطريق في الظلام.

وأرادت أن تنبهه إلى ان يكون حريصاً، ولكن الشيء الوحيد المهم الآن، هو ان الدوق كان ينتظرهما عند نهاية السلالم.

كان سيمون قد اصبح بجانب الدوق حاملاً مسدسه.

وعندما وصلت كاسيا إلى آخر الدرجات، مد الدوق يديه ليساعدها.

قال الدوق: «لقد انتهى كل شيء، ولكن عليك ان تركبي الحصان أثناء العودة حيث ان ليس بالإمكان احضار عربة إلى هنا.»

وأثناء كلامه، كانا قد اصبحا خارج المكان حيث رأت سائسين يقودان حصانين ادركت انهما لها ولسيمون.

كان حصان الدوق يقوده شاب مسلح. وكان بعيداً عنهم، يسير الخاطفون الأربعة مخفورين برجال الدوق.

وكان النور كافياً لكي ترى ان بيتس كان واحداً منهم.

وتكهنت بأن الأربعة الآخرين كانوا يعملون في الجيش تحت إمرة الدوق.

لم يقل الدوق شيئاً، وإنما رفع سيمون إلى ظهر احد الجوادين، ثم استدار نحو كاسيا، التي جلست فوق السرج وللحظة واحدة، تشابكت نظراتهما.

وما ان نظر إليها، حتى جعله صوت انهيار مفاجيء ينظر إلى الأعلى. وصرخ بحدة: «اسرعوا بالإبتعاد... اسرعوا... اسرعوا.»

وأثناء ذلك، كان قد امسك بلجام جواد كاسيا واخذ يركض، وهو يجرها معه، في الحقل.

وبعد لحظة تردد، تبعهما سيمون، وكذلك بقية السائسين وذلك الذي يقود حصان الدوق الفحل.

توقف الدوق على بعد حوالي الثلاثين ياردة من برج المراقبة. وأوقف معه حصان كاسيا التي نظرت خلفها بعد ان ادركت ان الصوت الذي اخاف الدوق، آخذ بالإرتفاع.

ورأت ان برج المراقبة يميل على جانبه، فحبست انفاسها.

وفجأة، وبصوت قعقعة هائلة، انهار القسم الأعلى من البناء بأكمله، وهو الذي كانت، وسيمون حبيسين فيه، انهار إلى الأرض.

وتصاعدت سحابة من الغبار، وعندما استقرت رأوا أن نصف برج المراقبة فقط قد بقي منتصباً.

استطاعت ان تقول بصوت متهدج: «كان ذلك حيث... تسلقت انت... الينا. وكان... ممكناً أن... تقتل.»

فأجاب: «وأنت أيضاً، يا غاليتي.»

وإذ سمعت كلمة هذه الكلمة، تحولت عيناها عن البرج إليه. ثم قال فجأة، وكأنه يبذل جهداً في الكلام: «والآن، يمكننا العودة إلى البيت بسلام.»

سار نحو حصانه، ثم امتطاه، قائلاً للسائس: «التحق بالآخرين، يا جون، لا نريد أياً من أولئك النصابين ان يفلت في آخر لحظة.»

فقال جون: «لن ادع هذا يحدث، يا سيادة الدوق.» ثم ركب حصانه متجهاً بسرعة إلى حيث كان رفاقه واقفين يحدقون في البرج المداعي وكأنهم لا يصدقون اعينهم.

وعندما التحق بهم جون، استداروا إليه.

كانوا يبطئون في سيرهم بسبب رجال العصابة، السائرين بحراستهم، على الأرض الوعرة.

وكان بيل مايزال يئن وهو يمسك بذراعه المصابة، وسار الدوق امامهم بينما قال سيمون، الذي كان سائراً بجانب كاسيا: «لم أركب الحصان في الليل قط من قبل. لشد ما كنت ماهراً يا عمي في مجيئك هذا لإنقاذنا. لقد كنا، انا والآنسة واتسون، نحاول ان نخبرك بمكاننا.»

فقالت كاسيا بسرعة لكي يفهم الدوق ما يقوله سيمون: «انها قوة الفكر.»

فقال: «لقد قرأت اشاراتك السرية في الرسالة.»

قالت: «تمنيت ان تفهمها.»

فقال باختصار: «لقد فهمتها. فهي كانت كما توقعت منك.» وكان في صوته من العمق ما جعلها تحمر خجلاً، وفجأة، وكأنه كان في غاية السرعة للوصول إلى القصر نخس حصانه ليزيد من سرعته.

وعندما وصلوا إلى الاسطبل، وجدوا كل من كان في القصر، بانتظارهم هناك.

وارتفعت هتافات البهجة لوصولهم.

فلمست كاسيا فيها من الاخلاص ما جعل الدموع تتدفق من عينيها. ورفع شخص ما، سيمون من على ظهر حصانه، ورأى هو حاضنته فركض إليها، فاحاطته بذراعيها، وسمعته كاسيا يحدثها، وقد تملكته الإثارة، عما حدث، وانتبهت الآن إلى أن الدوق كان واقفاً بجانبها في انتظار ان تنزل إلى الأرض. وقال لها بصوت لم يسمعه سواها: «لقد احضرتك إلى... بيتك.»

فهمست تجيبه: «لقد كنت... رائعاً.»

وعندما دخلوا القصر، كان الطعام في انتظارهم على المائدة. فاعلن سيمون أنه جائع جداً.

وقالت كاسيا للدوق: «سأعود بعد دقائق.» ذلك انها فكرت، وهي تصعد السلم إلى غرفتها قفزاً، انها لا تريد ان يراها بمثل منظرها هذا الأشعث القذر.

ذلك ان العربة القروية لم تكن نظيفة، وكذلك الأرض التي أرغمت، وسيمون، على الجلوس عليها، كان يكسوها، تراب كثيف.

غسلت وجهها ويديها، وبدلت ثيابها.

ولم يأخذ منها هذا كله سوى عشر دقائق تقريباً إذ انها لم تكن تريد أن تتأخر عن الدوق.

وعندما التحقت بهما في غرفة الطعام، كان امام سيمون إناء من الحساء.

قال لها الدوق: «إننا سنقيم احتفالاً لكما برجوعكما إلى الحضارة بعد كل ما مر عليكما من أمور مخيفة.»

فقالت: «كانت أموراً مخيفة فعلاً، ولكن سيمون كان غاية في الشجاعة. ان بامكانك ان تفخر به.»

فأجاب الدوق: «إنني فخور به.»

قال سيمون: «لو كانت لدي بندقية، لكنت اطلقت النار عليهم كما اطلقت انت النار على ذلك الرجل الفظيع المسمى بيل.»

فقال الدوق: «سيتألم من جرح ذراعه، لبعض الوقت، وبعد ذلك سيحكم عليه بالسجن مدة طويلة.»

فقال سيمون: «إني مسرور لأنهم سيذهبون إلى السجن... انهم رجال أوغاد جداً.»

فقال الدوق: «اظن ما اخافني اكثر من أي شيء آخر، هو معرفتي بانكما في ذلك البرج والذي كنت اعلم انه قد ينهار في أية لحظة.»

فقالت كاسيا بنعومة: «ومع ذلك، فقد تسلقته.»

أجاب الدوق: «لكي اكون معكما، فهو لم يكن أسوأ من تسلق الجبال في البرتغال أو البيرينيس.»

فقالت: «لو كان لديّ وسام، لقدمته إليك.»

أجاب: «سنتحدث عن ذلك فيما بعد.»

وشعرت كاسيا وكأنها تتحرك في حلم. ولم تعرف ماذا أكلت أو شربت.

وجاءت الحاضنة لتأخذ سيمون، فنهض هذا من امام المائدة، واقترب من كاسيا وهو يقول: «لقد كنت انا شجاعاً، أليس كذلك؟ وأيضاً حاولت ان احميك.»

أجابته كاسيا: «لقد كنت رائعاً.»

فقال بحزم: «في المرة القادمة سأطلق النار على أولئك الرجال الاوغاد من بندقيتي.»

وانتقل إلى الدوق الذي دهش إذ رآه يحتضنه قائلاً: «ان حاضنتي تقول إنك شجاع جريء يا عمي دارسي، وأنا أريد ان اكون مثلك ويجب ان تعلمني الرماية.»

فقال الدوق: «سأفعل ذلك، ولكنك تعلم طبعاً انك إذا كنت تريد ان تكون مثلي، فعليك ان تتعلم كيف تقرأ.»

وسكت لحظة، ثم عاد يقول: «وإلا لما كنت استطعت قراءة رسالة الآنسة واتسون، ولما كنت عرفت قط مكانكما.»

ففكر سيمون في ذلك لحظة، ثم قال: «لا بأس، سأقرأ، إذا تعلمت الرماية.»

وعانقه مرة أخرى، ثم ركض خارجاً مع حاضنته، وهو يتحدث إليها عن الرجال الأوغاد الذين بإمكانه ان يرميهم بالنار عندما يصبح في بندقيته رصاص.

ونظر الدوق إلى كاسيا باسماً، وكانت هي تفكر في أنه سيكون أباً متفهماً عندما يصبح لديه أولاد.

ودون كلام، توجها نحو غرفة الجلوس.

وهناك وقف ينظر إليها، فاخذت تتساءل عما يريد قوله. واقترب منها، وتشابكت نظراتهما.

«لماذا انت بهذه الحلاوة وبهذا الجمال غير المعقول ما يجعل من الصعب العيش بدونك.»

وشعرت كاسيا وكأن ابواب السعادة تفتح امامها، شعرت بأن ضوء القمر يغمر كيانها.

قال الدوق: «احبك، لشد ما احبك، متى ستتزوجينني؟ لا استطيع الانتظار، كما انني في اشد الخوف من ان يأخذك مني احد.»

فأجابت: «وأنا... احبك أيضاً.»

فقال: «إذن، فهذا وحده المهم.»

جلس على الأريكة وهو يقول: «يجب ان نقرر الآن، فانا لا استطيع ان اتعرض مرة أخرى إلى مثل ما تعرضت له اليوم عندما خفت من أن يكون أولئك المحتالين قد تعرضوا لك بأذى، أو أنني قد لا اتمكن من العثور عليك.»

«هل تعني انهم... إذا كانوا حصلوا على المال... ربما كانوا... تركونا نموت جوعاً؟»

فقال بسرعة: «كان يمكن ان يفعلوا أي شيء، وهذا هو السبب في انني اريدك معي كل يوم.»

وكان قد سكت برهة قبل ان يضيف قائلاً: «انني ابقى على الدوام مستيقظاً افكر فيك إلى ان اخاف على نفسي من الجنون.»

فقالت: «أروع شيء هو انك فهمت مكاننا، لقد اخذنا، انا وسيمون، ندعو بأن تفهم إشارتي.»

فقال ببساطة: «لقد فكرت في انك تخبرينني اين علي ان ابحث عنك، وما أن استطعت قراءة افكارك، حتى استطعت ان اقرأ ما أردت ان تفهميني أياه.»

فتمتمت: «اظن... هذا هو ما يعنيه... الحب.»

فقال: «انك لم تجيبي على سؤالي. متى ستتزوجينني؟»

أجابت: «هل انت تطلب مني حقاً ان اكون زوجتك، دون ان تعرف من اكون؟»

فأجاب باسماً: «انك لم تريدي ان تخبريني، ولكن الآن، بصفتي زوج المستقبل، اظن من حقي ان تطلعيني على سرك.»

وسكت لحظة شعرت هي أثناءها أنه يحاول ان يتذكر شيئاً ما، ليعود فيقول: «لقد طرأت في ذهني فكرة الآن... عندما كتبت اسمك في اسفل تلك الرسالة، خطر لي انني كنت سمعت بذلك الإسم، كاسيا، من قبل، والآن تذكرت أين سمعت به.»

ونهض أثناء كلامه، متوجهاً إلى منضدة بجانب المدفأة.

وكانت كاسيا قد رأت الصحف فوقها، تماماً كما كان أبوها يضع صحفه. واخرج الدوق من بينها صحيفة المورننغ بوست.

احضرها إليها وهو يشير إلى قسم الاعلانات تحت كلمة مطلوب.

واخذتها كاسيا منه متتبعة اتجاه اصبعه، ثم قرأت: كاسيا، سامحيني، وعودي إلى البيت.

إنني افتقدك كثيراً

«ر.ر.»

فرأت الاعلان، ثم اطلقت صرخة قصيرة. «لقد انتصرت. انتصرت.»

«لقد انتصرت في أي شيء؟»

فأجابت: «في المعركة مع أبي.»

«وهل كنت هاربة منه؟»

فأومأت برأسها إيجاباً.

فتنهد بعمق: «آه لو كنت تعلمين مبلغ عذابي وأنا اتصور انك ربما هاربة من زوج أو... صديق.»

فنظرت إليه بدهشة شديدة: «كيف... يمكنك ان تفكر... بشيء كهذا؟»

«إني احبك... وأريدك. واعدك بأن اكون زوجاً غيوراً جداً.»

فقالت برقة: «لن يكون بك حاجة للشعور بالغيرة من احد.»

وسكتت لحظة، ثم قالت: «دعني اخبرك بسبب هربي.»

«ما هو السبب؟»

«لأن والدي والذي منزله في ساحة باركلي إلى الناحية الأخرى من منزلك، كان يريد ان يرغمني على الزواج من رجل كبير السن يدعى اللورد ستيفيلتون.»

«تتزوجينه؟ ولماذا يريد أبوك ان يرغمك على ذلك؟»

فترددت كاسيا لحظة، ثم قالت: «ان أبي غني جداً... ولهذا فهو يخاف ان أتزوج من احد صيادي الثروات.»

فقال الدوق ضاحكاً: «إذن، فهذا هو السبب في هربك؟ يا

عزيزتي، قد أوصف بأشياء كثيرة، ولكن ليس من بينها السعي وراء ثروات النساء.»

فقالت: «أعلم هذا، وكنت مصممة على ألا اتزوج من رجل لا أحبه. ولكن أبي قال إنني لن اتمكن أبداً من كسب قرش واحد من عمل اقوم به إذا أنا لم اوافق على طلبه.»

فقال الدوق: «حسناً، يمكنك الآن أن تخبريه بأنه مخطىء، فقد حصلت على أجر أسبوع، ليس مرة واحدة وإنما ألوف المرات، وسأدفع لك بأية عملة تريدينها.»

فقالت: «إني افضلها... السعادة، ومادمت سأتزوجك... فهذا يدل على انني... احبك.»

فقال: «سأتزوجك في أسرع وقت ممكن، فعدا عن كل شيء آخر، هناك كثير من العمل عليك ان تقومي به، وانت تعلمين، مثلي، ان سيمون لن يستطيع شيئاً من دونك.»

فصرخت: «أحب سيمون، وأحب القصر، واحبك أنت.»

وشعر الدوق بحرارة في صوتها لم يشعر بها من قبل.

وتلاقت عيناه بعينيها في نظرة طويلة حالمة.

ونقلتها عيناه إلى عالم من الجمال، والنور، والحب أدركت أنه كان دوماً موجوداً في قلبيهما.

وتمتمت تقول: «احبك... احبك... احبك.»

تمت

مع تمنياتي لكم بقضاء وقت ممتع

بلاعنوان

www.liilas.com

الدوق الجريء

أخبر والد كاسيا، وهو من أقطاب صناعة السفن الأثرياء، ابنته بأنه سيزوجها من اللورد ستيفيلتون وذلك لحمايتها من الخاطبين الساعين وراء ثروتها.

وتملك كاسيا الرعب، وأجابته بأنها لن تتزوج إلا رجلاً تحبه. ولكن والدها قال لها بغضب انها من دونه لن تستطيع العيش بهدوء ولن يكون في إمكانها أن تكسب بنساً واحداً.

وإذ صممت على إثبات خطأه، إتخذت عمل مربية لصبي يتيم في السابعة من عمره يدعى سيمون، وهو ابن أخ الدوق أوف دريغورن ويعيش في قصره.

وكان الدوق من أبطال الحرب وقد اكتسب سمعة جعلته يلقّب بالدوق الجريء.

www.liilas.com

لبنان: ٣٠٠٠ ل.ل - سوريا: ٦٠ ل.س - الكويت: ٧٥٠ فلس - البحرين: ١دينار - قطر: ١٠ دراهم - السعودية: ١٠ ريالات - الامارات: ١٠ دراهم - الاردن: ١,٥ دينار - مصر: ٤جنيه - المغرب: ٨درهم مغربي.